رواية

أولاد اليهودية

الرواية الحائزة على المرتبة الثانية في مسابقة مؤسسة . الكلمة الثقافية .
مصر. جائزة نجيب محفوظ . للرواية والقصة . الدورة الثانية . 2010

تحسين كرمياني



أولاد اليهودية

الكتاب: أولاد اليهودية

رواية

تأليف: تحسين كرمياني

الطبعة الأولى: ٢٠١١

تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين



دار رند

طباعة. نشر. توزيع

دمشق/ جوال: ٠٩٤٤٦٢٨٥٧٠- ٠٠٩٦٣

Email: akramaleshi@gmail.com

تحسين كرمياني

أولاد اليهودية

{حازت على المرتبة الثانية في مسابقة مؤسسة . الكلمة
الثقافية . مصر. جائزة نجيب محفوظ . للرواية والقصة .
الدورة الثانية . ٢٠١٠}

رواية

القسم الأوّل

حدث ذلك..

بعدما دكّت السماء بلدة (جلبلاء) بمطر استثنائي غير مسبوق، قبيل أعياد رأس السنة الميلادية للعام (١٩٧٨)، مطر غزير لم يهطل منذ سنوات طويلة، رغم توسلات لسانية لم تنقطع، تطلقها أفواه فلاّحين يائسين، وأدعية تواصلت صعوداً، عبر أكف مبسوطة، ترتجف مرفوعة، من منازل فقراء ومساكين لم يتعبهم تكرار الدعاء، لم تكل أيديهم من التمدد، نحو سماء كل شتاء تراكم غيوم داكنة، تزحف متلويّة، مخيفة تطل على (وجوه تنظر، ضحك سيتفجر)، قبل أن تقرقع معدة السماء، تضرب الحديد بالحديد، بروق مرعشة تومض، شرارات نارية تتبع شرارات ساطعة، تتناثر وتضمحل، تاركة بالون الحسرات تتدفق متحدة، قبل أن تنفلق عن ركام آهات، تتشابك وتتشظى على أديم فصول شتاءات عقيمة ظلّت تتعاقب على البلدة. . !!

* * *

سيول مائية غاضبة وجارفة ـ أدخلت الناس بوتقة النفير العام ـ زحفت تنحدر من سلسلة جبال ممتدة من أقصى شرق البلدة، إلى ما بعد منتصفها، جبال تلتف مثل أفعى عملاقة حول بلدة (جلبلاء)، تغادرها منحدرة تنخفض وتضمحل، سلسلة جبلية تتفاوت متضائلة بالتدريج.

* * *

(حيران) أسم حرِّف من لدن ألسنة قالت بحقها ما تستحق، عشوائية، أكوام ترابية قذفتها الطبيعة يوم التكوين بلا منفعة بشرية، جبال ترابها أحمر، جربته أيدي نساء البلدة، أردن عمل تنانير طينية، تشققت قبل أن تمسها ألسنة النار.

جاءت أيدي ماهرة، رغبت أن تصنع من تراب الجبل مادة (الجص)، لم يدم الطلاء طويلاً على جدران المنازل، تناثر إلى رذاذ أبيض، خانق وحريف، قبل أن يتم نهائياً صرف النظر عن سلسلة جبال تراكمت نائمة منذ فجر التأريخ، اعتبروها جثث ترابية ستتفسخ بمرور الأمطار، تلك السلسلة الجبلية ترافقها وديان متعرجة ومهملة، أخاديد تصلح لاقتناص مزابل تنقلها الرياح الدائمة.

* * *

بلدة (جلبلاء) مثل كل بلدات البلاد، ليس لديها مزابل رسمية، تلقي الناس قاذورات منازلها في الشوارع والأزقة، وفي الساحات

العامة، يلقوها ليلاً، تأتي رياح دائمة، خفيفة أحياناً، قوية دائماً، تجرف بمكانسها الشبحية ما موجود، أكياس نايلون تتطاير، أوراق فائضة عن اللزوم، علب معدنية وبلاستيكية، مهملات لا تنفع، بعد تبديل موجودات المنازل وفق الموضة، تطير وتتدحرج، قبل أن تستقبلها وديان فاغرة الفم، جائعة، تخزنها نفايات بشرية متنامية، تهيئها مجاريف ممتازة ليوم ماطر.

* * *

تلك الوديان تغدو أوان الشتاءات تحديداً، غير العاطلة منها، مسارات ممتازة لماء يتراكم، ينحدر بشكل مهول، تجد (وادي الشوك) كما يحلو لبعض الناس تسميته، أرض أشواك وعاقول، لا شيء آخر ينبت في ربوعها، ذلك الوادي يصير مسلكاً ممتازاً للسيول الزاحفة، مكان ممر وحيد، يفضي بيسر، بلا عوارض طبيعية، أو بشرية إلى نهر البلدة (دلبلاء)..!!

* * *

مطر هطل، دام أيّاماً ثلاثة، توقعت الناس شراً مستطيراً، مباغت، بلا بوادر غيوم معلنة، بلا بروق مسبوقة، لا يتوقف، لا يتقطع، كما هو معروف، سائد.

قبل هطوله، نامت الناس على سماء صاحية، أضافت بالونات كآبة إلى أطنان يأس متخثر، قحط تواصل لأعوام تسعة، شبعت أجسادهم برداً يقرص بلا رحمة، جاف ومرعش، تكوموا تحت دثر متهرئة، مثل كل ليالي الشتاءات المتثاقلة.

باغتهم منتصف الليل سيل قيء ينهمر، أجسادهم قفزت، أصوات عنيفة تزمجر، قرقعات براميل فارغة، معدة السماء تفريل نفسها، قرقعة تتبع قرقعة، دفعتهم واجمين، وقفوا وراء نوافذ غرفهم، متذبذبون بين شك مترسخ ويقين يكتسح، الظلام دامس، النعاس قاتل، وعيونهم تشرخ حجب غامضة، تحجرت ألسنتهم وأفواههم فغرت، قلوبهم ترتبك فاقدة انضباطها النبضي، غير واثقين مما يجري في ليل طويل.

* * *

بدأت البوادر الاستهلالية، رذاذ بدأ يهطل، استحال بعد دقائق إلى مطر مجنون، صنابير خرافية تحرر ما وراءها، ماء أزلي مخزون، ضحكت الأفواه، خرجت القهقهات من وراء النوافذ عارية لا تستحي، اشتبكت تحت خيوط الماء، تتبلل، ترقص، قبل أن تغدو صيحات مبهمة، مثل صيحات بنات آوى أوان التزاوج، اندفعت ثغور، حررت براكين كآبات سابتة، من أغوار يبست حدائقها، شجّعت لـ(تصاعدات) زغاريد نساء خرجن إلى باحات منازلهن، يبللن أنفسهن فرحاً، تبعت الزغاريد صياحات ديّكة ونهيق حمير سائب من داخل الأزقة، نباح جحافل كلاب متجمهرة حول مزابل (ميدان تعليم فن الرماية)، علت مكبرات الصوت لمسجد البلدة، صوت شرخ الفرح الكوني المباغت، توضح عن تكبيرات وتهليلات أسكرت أبدان الناس وخشعت لها قلوبهم.. !!

* * *

هلّ الفجر..

ما سكتت السماء من بكاءها، أبدان فقدت بالونات الفرح، استبدلت رقصها ارتجاف، عيون تتحجر، قلوب تنتفض شيئاً فشيئاً، فاقدة شعاع الانسجام المباغت، الترنيمة المتناغمة، مع ربيع مسرّات مفقود، بدأت ترتعش، خفقانات غير منضبطة، دعت الأبدان تفقد معنوياتها، تنهار أمام ماء غير وارد حتى في أحلامهم، راح يغدو كتلة متجانسة، ينزل بعنف، مثل هذا النزول حدث في أزمنة سحيقة، رواية لا تنسى مازالت تتسلى بها الناس ليالي الانتظار، ومضت ألسن معسولة الجرس تنقل الرواية من جيلٍ لجيل.. !!



تقول الحكاية..

تواصل نزول الماء (كما تقول الرواية) ليلغي العالم القديم، ويمهد السبل لحياة جديدة، خالية من الآثام، كلام حفظوه من ملاّ البلدة (صالح) في مناسبات معادة، عرفوا. السماء حين تبكي لابد من وجود خروقات أرضية يحدثها بشر عاص، مذنبون لا يتوبون، فيغضب الله في ملكوته، قبل أن يأمر ملائكته بعقاب جماعي، يأتي الماء بلا رحمة لغسل القذارة الخارقة للفطرة، والناسفة أحكام الشريعة عند الناس..!!

* * *

من كانت بيوتهم تطلّ، على جانبي الوادي الكبير، أو على المرتفعات، رأوا قدوم زوابع غرينية تصدح، كأفواه (أغوال) جائعة، تمزق أيّ شيء واقف، تتناطح الأمواج، تتناثر هياكل أميبية باعثة فحيحاً مرعباً، أرجف أبدانهم، وأطفأ شيئاً فشيئاً مصابيح عقولهم..!!

* * *

أستمر هطول المطر حتى المساء اللاحق، بدأت الألسنة تهذي، ترشق عبارات غامضة، تتوسل وتتذمر، قبل أن تستحيل زغاريد النساء مهرجان بكاء، كلّهم صاروا في محراب الخوف ناشدين توقف السماء من إنزال ماء العقاب الجماعي، ناذرين ما يملكون، معاهدين الخالق على العودة لسبل الرشاد، فما هبط من ماء يكفي البلدة، البلاد، العالم، لسنوات تالية من النماء، سماء أطبقت على كل شيء، لون رمادي، زرقة غامقة، واصلت ذرف دموعها، في عملية (غسيل) أبدي،ماء يكنس الحجر، يقتلع الأحراش، النباتات، يضعها أمام طمى غاضبة تدعبلها سيول هائجة، مثل أسنان محاريث فولاذيّة تشق وتردم،قبل أن تبدد كل شيء صامد..!!

* * *

في الليلة الثانية تصاعدت صراخات النساء، ضجيج الصبيان، عرف الجميع أنها أصوات استغاثة جماعية، من أصحاب بيوتات (التجاوز)، عرفوا، بحكم الخبرة، حصول كارثة جديدة، لا أحد منهم، يمتلك جرأة كاملة لمبارحة بيته، الكل كان يناضل لسد

ثقوب تحدثها مناقير الماء الهائج في سقوف بيوتهم الطينية، تأهبوا لهزيمة تاريخية من بلدتهم، مثلما تقول حكايات متواترة، أن البلدة مرّت بهزيمة كبيرة، ما زالت تعيش حاضرة، طرية في الأذهان، حكاية مسليّة، تلهجها ألسن خبيرة، كلّما يشمّوا رائحة مطر قادم من أفق الخيال.

* * *

تقول الحكاية..

قبل أربعة وعشرين سنة، فاض النهر، غرقت بيوتات، صعد الناس إلى الجبال لأيّام سبعة، أتت وحدات (الوصي على العرش)، جنود (هنود)، دقوا أوتاد خيام لإيواء المنكوبين، جيء بـ(بلدوزرات) مجنزرة، عملوا سياجاً ترابياً كبيراً، حجز البلدة عن النهر.

* * *

يستذكرون الحكايات، ما جرى لأجدادهم القريبين، مات خلق كثير خنقاً، تفشت ظاهرة الفساد الأخلاقي، بعدما جاع الناس، جنود غرباء أغووا بلقمة طعام فتيات ونساء أفقدهن الجوع صبرهن وأغلى كنوزهن.

* * *

أصوات تتداخل، تتناثر، مكبرات صوت الجامع تنادي أصحاب الغيرة، تبث الحماسة وتنفخ الأوداج، والناس سكارى وحيارى، تهيأ نفسها لمحاسبة تاريخية جديدة.

* * *

عند فجر اليوم الثالث..

البيوت الطينية الممتدة على جانبي الوادي لا أثر لها، كل شيء ماع وضاع، مئات العائلات تغسلها ماء غريني متماوج، تتكوم كثيران محاصرة في غابة من قبل أسود جائعة، تلك البيوت غير النظامية، بنيت بغيّاب القوانين، بنتها ناس زحفت من قرى وأرياف، جرّاء جوع لا نهاية له، واندحار كامل لمهنة الزراعة.

* * *

في زمان القحط الكبير، زمان يربو عمره على تسع سنوات، بيوتات (تجاوز) كما شاع تسميتها، بنيت من غير انتباه، عقول راشدة كافحت علناً لوقف بنائها، وجدت نفسها داخل زنزانة إدارة البلدة، نالوا عقاباً صارماً، قبل أن يقحموا في بالهم، مقولة الضابط الجديد النقيب (مالح):

- أنتم مفسدون في البلدة، تحاربون الحريّة الجديدة..!!

خرجوا مثل كلاب مهزومة، تضع أذنابها بين سيقانها، مطأطئي الرؤوس، متوارون عن الأنظار، ظلّت الناس تدخل بناية إدارة البلدة وتخرج بتصاريح بناء، فحدثت عملية فوضى، بسبب الهيجان الشعبي العارم، وغيّاب حس المسؤولية الجمعية، وفقدان فاصل مراعاة مصالح الناس، أغلقت الممرات الخاصة بالمستطرقين، ردمت معابر، سدّت منافذ مياه المجاري.

معلومة لم يستطع إنسان الجهر بها، كل واحد كان يسرّها لنفسه:

- ضابطنا الجديد، على ما يبدو مرتشي كبير، سيجلب كارثة على رؤوس أهالي البلدة..!!

* * *

في اليوم الرابع..

السماء تضحك، كأنها لم تبكِ، نزفت كامل دموعها، طلعت ترى ما فعلت بالناس، شمس واضحة، طيور غريبة تحلّق في السماء، ناس بدأت تداوي جروحها، تخوض في الماء المتراكم في الوادي الكبير، تبحث عن بقايا أشياءها البسيطة، ما تنفع وقت المحنة، ومن الجانب الشمالي للبلدة، لاحت طوابير بشرية، بدأت تستوضح نفسها، قافلة تزحف، تركب على الحمير، اخترقوا البلدة، يترنمون بترنيمة جماعية، ترنيمة فرح على ما يبدو بعد وصولهم مبتغاهم، بعد عناء شاق لسفر طويل، في الساحة العامة، ساحة (سوق الجمعة)، الذي تحوّل فيما بعد إلى (سوق السبت) لسبب تجهله الناس، مجرد فكرة مباغتة طرأت ببال المدير الجديد للبلدة، تم تمريرها إلى الناس عبر ألسن جاهزة لتحريك الجو العام.

وصلت القافلة مساحة أرض منبسطة، تلاصق السوق الوحيد للبلدة، حطوا خيامهم، عملوا سياجاً صفيحياً حولهم، لم يبال أحد بهم، كانت البلدة تمر بنائحة جماعية، مصيبة المصائب، أطفال فقدوا، بيوت أذابتها السيول، انهمكت جموع ثائرة، تحاول رد الاعتبار لمنازلهم، العائلات المنكوبة ظلّت فاقدة حولها، متراكمة كأجداث متفسخة، أخرجوها من تحت البيوت جرّاء زلزال

كبير، تئن، تتأوه، تنتظر محسنين لله، كي يمدونهم بما تجود أيديهم من خيرات متواضعة..!!

* * *

مع (القوم) القادم..

رجل نحيف، خفيف الحركة، ترك مجتمعه وأندس مع أهالي البلدة، راح يتنقل كالزئبق، يحمل أطفال متباكين، يساعد رجال شيوخ، تحرك كثيراً، لم تظهر على محياه بوادر تعب، أستمر في إسداء خدمة مجانية ومنصفة، قام بتمشيط الوادي، بغية إخراج آخر شيء من ممتلكات المنكوبين، جهد وكفاح مثمرين، مثابرة صاحب غيرة، عاد بلا تباهي إلى قومه، سار الرجل الغريب ببطء، تغمره سعادة لا توصف، أدّى ما عليه، رهط أطفال اقتفوا أثره، رجل غريب بذل ما بوسعه لمسح آثار الدمار الكبير، وإخماد فرن الحزن الثقيل، دخل إلى السور الصفيحي، أطفال ملاعين، لم تثكلهم مصيبة البلدة، بحثوا عن مزغل، فتحة تسمح لمرور الرؤية واقتناص الأسرار المتوالدة، فسحة تسمح لعيونهم فك ألغاز وخبايا عالم غامض جاء مع الفيضان، تفاعلت رغبتهم، تحولت إلى حرب من أجل اليقين، اعتلى بعضهم ظهر بعضهم، تجمدت عيون أصحاب الصولة الأولى، ثمة عالم غريب، ترجلوا فوراً دون أن يمنحوا زملائهم كي ينظروا أيضاً، فرّوا إلى بيوتهم ذاهلين.

في تلك الليلة عرف أهالي البلدة المنكوبة (جلبلاء)، الذين حلّوا ضيوفاً عندهم، وبنوا بيوتاً صفيحية، ليس كما ساد الاعتقاد،

فارّون من جائحة فيضان غاضب، بل (غجر) جاءوا لإفساد أخلاق بلدتهم، كما حدث قبل ثلاثين عاماً.

* * *

قبل ثلاثين عاماً بالتمام والكمال، حطّت أقوام في تلك الرقعة المنبسطة، في البدء استقبلتهم الناس برحابة صدر كبير، مدّوا لهم يد المحبة، أعطوهم ما احتاجوا إليه، قبل أن تسير شائعة طبعت شمائلهم بشيء من البلادة، وكثير عنف، وجدوا شبابهم ينسلون إلى بيوتهم نهاراً، تقام حفلات أنس ومجون، انهالوا عليهم في صبيحة مشهودة بمطر حجر، أحرقوا بيوتهم، تدخلت شرطة البلدة، قاومت شراسة نساء فقدن رشدهن، ومكر رجال ثارت شهواتهم، صاروا شجعان في لحظة استثنائية، لحظتها قرر (الضيوف) هجرة البلدة.

* * *

ناس نست تلك الواقعة، لا أحد يرغب اجترار آلام ماضٍ بعيد، بعدما أتت السنون بمجاريف آلام ظلّت تتناسل، تشتّت أفكار الناس، ناس ماتوا، ناس فقدوا في الحروب، ناس هاجروا بحثاً عن لقمة عيش أفضل، ناس عاشت بلا ذاكرة، كونها كثيرة الدموع ودائمة الجوع.

* * *

ذهب الملاّ (صالح) إلى النقيب (مالح)، وجده يجلس على كرسي أمام البناية المركزية التي تتربع صدر السوق، لم يقم

الرجل العسكري من كرسيّه، كان يتمتع بطبع سيادي، دائماً ينظر إلى الناس، رعايا تحت وصايته، سلّم الـ (ملاّ) عليه، لم يبد حراكاً، الـ(ملاّ) أدرك مهمته، تدارس أمره من جميع الاحتمالات الممكنة، نشده، كي ينبهه خطورة ما يجري بين الناس، فهو يعرف الرجل جيداً، كائن عاصٍ، دائم الغضب، يسكن جوفه قلب حجري، يعرفه من خلال تعامله، من طبيعة مشيته، من نظراته، توكل على عصا إيمانه، كي يضع حداً لما يجري، بعدما تناثرت توعدات فوق العادة من قبل الناس، بصبره أقنع كل من جاء يهمس، أو يوشوش في أذنه، عواقب مهمته العسيرة. . قال لهم:

- أؤدي ما علي من واجب شرعي.

واجبه الدنيوي كما يصرح دائماً، إشاعة السلام، نفح نسيم المحبة، وتصحيح مسارات الغافلين.

رمقه العسكري الجالس، وقف الملاّ (صالح) ينحت عينين أيمانيتين في عينين لا تخشعان. . تحرك لسان العسكري (مالح):

- ها.. مولانا، يبدو أنهم أقلقوا يقينك.

أجابه بعدما (بسمل مع نفسه، حمد وشكر):

- الناس في محنة كبيرة، لا نريد محن مضافة إلى محننا.

- ربما الناس بحاجة إلى ترفيه هذه المرّة.

- ذلك يزيد من عذاباتهم.

- هي أوامر صادرة، علي السماح لهم بالسكن في البلدة وتوفير الحماية لهم.

هزّ الـ(ملاّ) رأسه، ألقى سلامه واستدار، مطأطأ الرأس عاد..!!

* * *

في الليلة التالية..

تصاعدت من البيوت الصفيحية أنوار ملوّنة، ارتفعت أصوات طبول، دفعت الصبيان والشباب ترك منازلهم، توجهوا بجنون نحو مصدر الفرح القائم، تناوبوا في تسلق بعضهم أكتاف البعض، كانت شرطة البلدة تتهمك بمراقبة ما يحصل في الداخل، عبر فتحات تلصصية عملوها لأنفسهم، حصل فلتان أمني، دفع الصبيان قذف وابل أحجار إلى الداخل، تصاعدت صيحات، لعلعت بنادق، سقط ضحايا، ليل ينتصف، غبار يخنق، ومركبات الشرطة بدأت تزعق، الشرطة بدأت تسحل الرجال من المنازل.

* * *

في الصباح..

أجري استجواباً فورياً معهم، وقّعوا بالإجماع على ورقة تعويض (الفجر) خسائرهم، مع ضرورة حبس أبناءهم في الليل، وتلي أمر حكومي يلزمهم التواجد داخل مستعمرة الفرح، بناء على ما جاء من قرار سياسي، مضمونه إشاعة الفرح في البلاد، هدفه إغاظة أعداء الحكومة الجديدة.

* * *

بدأ الرجال يتوافدون ليلاً إلى بيوت المسرات، أبدانهم تنسجم مع إيقاعات الرقص المتواصل، رقصة الرجل الغريب، الذي أبدى

ما يملك من طاقة غير بشرية يوم النكبة، رجل عجيب يتقافز في الهواء، يحط كما يحط الطائر بخفة على الأرض، يمسك بيده منديلاً أحمر، يرفرفه بكفه أثناء التحليق، وسط طبول تواصل القرع، تضخ العزيمة في جسده المرن، حشد (غجريات) بملابس ملوّنة يرقصن، في صف حلقي منضبط، ضابط الشرطة النقيب (مالح) يتصدر الجالسين، أمامه على طاولة دائرية صحن (مزّة) وبطل (منكر).

نمت بوادر تذمر عند الرجال، رغبوا ترك المكان، لكنهم اصطدموا بأوامر صارمة:

- يمنع ترك مملكة الفرح قبل انتهاء وصلات الليل.

الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وقت متفق عليه، يتوقف الفرح، كي تنام الناس بقية الوقت.

* * *

تهامس سريّ تواصل، نساء انقسمن على أنفسهن، نساء وجدن الحالة تغيير حداثي في إستراتيجية حياتهن، سأمن عطر البلادة، خسن في مستنقع الجهل، آن أوان التحرر، الخروج من أردية التخلف، جاء وقت إشباع أنفسهن بمتع باهرة، نساء وجدن أمامهن كارثة أخلاقية عاصفة، ستدحرجهن إلى قاع الهاوية، بعدما رصدن تبدلات مظهرية على أزواجهن، رأين في أفق الخيال، غد أسود يحمل كثيراً من غوامض الأحداث، الرجال وقفوا منتصف الخط، قلوب تنحل، رؤوس تبحث عن أجوبة مقنعة، يهرعون إلى

(ملاّ) البلدة، يجدوه يواصل الحديث عن فتنة قائمة، حرب سماوية معلنة، ستغربل الدنيا، يصحح (ملاّ) البلدة عبارته الأخيرة، (ستغربل البلدة)، يعود الرجال ليصطدموا بنسائهم، تحدث مشاحنات كلامية، تتهامد أبدانهم على أسرّة الليل، أبدان فقدت أسرارها الغزلية الدافئة، مذ جاء (الغجر) إلى البلدة مع المطر.

* * *

لم تفلح دعوات تحثّ الناس على إغاثة المنكوبين، ظلّوا في العراء، يلملمون حبيبات فقرهم، يحصون كراريس أحزانهم، رغم توافد مركبات من بلدات قريبة، حملت مواد إغاثة يسيرة، تفاجئ الناس قدوم رجل نحيف يقود حمير قومه، عليها أكياس مغلقة، اندفعت طوابير الأطفال، صفقوا، اقتفوا أثر موكب (حميري) طويل، وصل مقدمة الموكب ساحة كبيرة، تجحفلت عليها أيّام زمان وحدات عسكرية، في أزمنة التدريب الجماعي، لجيش البلاد (المنحل)، تصاعدت معنويات المنكوبين، فرحوا بقدوم الرجل الغريب، صاحب الغيرة، مثل الزئبق ناضل أيّام الفيضان من أجل إغاثة الناس، تقدم صابراً، هادئاً، أنزل الأكياس، فتحها، أكوام رغيف، تمر (زهدي)، وزّع معونة الغوث على المنكوبين، لم يتكلم، رغبة موحدة انطلقت من عيون الناس، أوجزها سؤال صمت:

- من هذا الرجل المحسن في بلدتنا..!!

لا أحد توصل إلى كنيته، أسمه، معرفة شكله، أدّى عمله بلا

محاورة، أوحديث، اكتفى بهزّات رأسه، إجابة فاعلة عن كلمات ترحيب انهالت عليه، أنهى عمله وقاد جحفل حميره إلى معسكره، تبعه جوقات صبيان، وكثير رجال كأنهم يشيعون جنازة.

* * *

أفاق (الغجر) صبيحة اليوم السابع على (إسهال) شديد، تلوّث أجسادهم، يتصايحون، أنتبه الصبيان، ثمة صرخات غير مألوفة، مناحة واقعية، تتصاعد من داخل المستعمرة الصفيحية، نقلوا إلى أهاليهم ما رأوه يجري، سمعوا فرقعات بطونهم، تحرير غازات متخثرة، تقاطر الناس، قبل وصول شرطة البلدة، هبط رجال الشرطة غاضبين من مركباتهم، طردوا الناس إلى مسافات آمنة، قبل أن يعلن النقيب (مالح) حالة الطوارئ (حظر التجوال) في البلدة، اندفعت الجموع تركض صوب منازلها، فهم يعرفون لغة التفاهم، درجة التسامح غير متوفرة في هكذا حالات، فقدوا أعزّاء جرّاء مناسبات مماثلة، فالشرطة كما عرف عنهم، تطلق الرصاص من غير تفاهم، على كل خارق للقرار، كانت الناس متلهفة، تنتظر الأخبار المتصاعدة، تعطي خردوات بسيطة لكل شرطي مارق أو يتابع حالة الأمن في الأزقة، مقابل آخر أنباء القضيّة، تناثرت أخبار متضاربة، مصادرها غير موثوقة، كونها أخبار كاذبة، يحررها شرطة من خارج منطقة الحدث.

* * *

أمتد (حظر التجوال) إلى ساعة الغروب، قبل أن تتدفع الجموع البشرية كماء محتبس أنهار أمام ضغطه السد، صدحت مكبرات الصوت للجامع معلنة ساعة الفرج، عيون (كان) مكاناً واحداً هدفها، تلك الدائرة الصفيحية، وجدوها مسوّرة برجال الشرطة، لكن الخبر أنتشر على الأسماع:

- ضيوف البلدة أصيبوا بإسهال شديد جرّاء تسمم غريب..!!

كلام حرره شرطي.

آذان تبحث عن مصداقية الخبر، لأنهم يعرفون جيداً ضيوف بلدتهم، أنهم يصنعون طعامهم بأيديهم.

في اليوم التالي، مع البوادر الأولى للفجر، صدحت مكبرات الصوت للجامع:

- يمنع خروج الناس من المنازل حتى أشعار آخر، بناء لأوامر صادرة من جهة عليا..!!

* * *

في ذلك اليوم، المركز الصحي للبلدة تحولت إلى خلية نحل دءوب، أعادوا المرضى الراقدين إلى ذويهم، مفرغين الردهات من كل عليل مهما كانت درجة علّته، هيئوا كل الأمكنة لـ (لفجر)، نقلوهم بمركبات الشرطة، تحت حراسة مشددة، المركبات ظلّت تطلق عويلها كما لو حدث انقلاب عسكري أطاح برئاسة الدولة الجديدة، كانت ذاهبة وراجعة كأنها في حالة هذيان سقوط مقرور..!!

في الساعات الأوّل من العلاج، مات جمع كبير، قدرت الأجداث الخارجة بنحو عشر جثث، وفي ليلة ذلك النهار مات ستة آخرون، بعضهم فقد بصره، بعضهم سقط مشلولاً، ناس البلدة ظلّت مشدودة الأعصاب في من داخل منازلهم يرسمون سيناريوهات تتبدل مع كل زعيق لمركبة تمرق، كانوا يلاوون البرد، يخمدون نيران اللهفة بحركة متذمرة دائمة، يبحثون عن مصدر يضخ لهم مزيداً من الأخبار حول آخر المستجدات الحاصلة في المشفى.

* * *

مع الفجر..

أطلقت مكبرات الصوت نبأ تواصل (حظر التجوال)، بعد مرور ساعات قليلة، وجدت المنازل شرطة مرتبكة تطرق أبوابها من غير رحمة، بدأت أيدي غاضبة تسحل الرجال، ليس بوسع امرأة تصرخ، الصراخ والتوسل ممنوعان أوقات (حظر التجوال)، فلسفة متواترة يعرفها الجميع، كونهما من المحظورات السياسية في بلدان الحكومات التي تنتزع السلطة بطرق ثورية، تلك هي أبجديات كل سلطة أوتوقراطية حاكمة، طالما الهدف الرئيس الذي رفعوا لواءه وجاءوا لتطبيقه:

- (السعادة الدائمة خبز الجميع)..!!

* * *

عند الأصيل. .

جاء الفرج ثانية، وجدت البلدة أنها بلا رجال، علموا عبر خبر

غير موثوق شاع، الأوامر تقتضي استجواب شامل لرجال البلدة، لأن (اللجنة الصحيّة) التي جاءت للتحقق في موضوع التسمم الخطير، أكدت بما لا يقبل الشك، وجود عمل (جبان) متعمد آدّى إلى عملية (إبادة شبه جماعية) لقوم مسالمين، وظيفتهم الكونية إشاعة الفرح أوان الكوارث الطبيعية، قام نفر ضال في غفلة العيون الساهرة، تسميم مياه الشرب الخاص بهم بمادة عنيفة التأثير..!!

* * *

ولد صغير لم يحتمل غيّاب والده، خرق النظام المفروض، سار مائتي متر قبل أن تباغته رصاصة أخطأت رأسه، سكنت كتفه، جرجروه، ألقوه أسفل قدمي النقيب (مالح).. صاح فيه:

- بدأت جراء البلدة تنطح صخرة القانون.

تمتم الطفل:

- جئت أقول القصّة.

لم يكمل حكايته، مات جرّاء نزف شديد، نقلوه، ألقوه أمام عتبة الباب، خرجت أمّه، لطمت وجهها، نهرها شرطي زرع فوهة بندقيته في صدغها، المرأة صرخت:

- لم قتلتموه يا كفرة.

دفعها شرطي داخل منزلها، أغلق عليها الباب من الخارج، في تلك اللحظة كان النقيب يسترجع كلام الصبي الذي مات، أراد يعرف معنى كلامه، توصل إلى توقع مفروغ التأويل، أنّه جاء من

أجل حكاية خطيرة تهم أمن البلدة.

* * *

جاءه خبر التسمم المائي، عبر ورقة اللجنة المكلّفة بالتحقيق، ربط القضيتين برباط ذهن متوقد، برق شعاع يقود لشيء لافت للنظر، محرّك لمجسات الانتباه، أمر رجاله جلب أم (الصبي)، أتوا بها، متهالكة، مهترئة الثيّاب من غير عباءتها، من فمها خيوط دماء تمشي بفرح بوليسي، عيناها تمطران دموع، لسانها فقد آخر قطرة لعاب، أجلسها الضابط على الأرض بإشارة من حنكه، غسل وجهها برشقة نظرات تعذيبية..

صاح:

- لم خرج..!!

لم تتكلم، كانت معقودة اللسان، شبه مائتة.. واصل الضابط كلامه:

- لم خرج، سأخرج زوجك من الزنزانة، إن قلتِ الحقيقة.

سحبت المرأة نفساً عميقاً، عرف بفراسته الأمنية، أنها خرجت من شرنقة صمتها، تهيأت للكلام.. قالت بصوت منكسر:

- جاء إليك.

- جاء إلي.

- هو يعرف الحقيقة.

- أيّة حقيقة ياامرأة.

- يعرف من تسبب في موت الفجر.

قام من مكانه، تقدم من المرأة الجالسة على الأرض، برك

أمامها، وجدت المرأة نفسها أمام عينين وقحتين.. تمتم النقيب (مالح) بصوت لعوب:

- من سبب موتهم.

- هو يعرف ذلك.

- وأنت ألا تعرفي.

- رفض البوح بشيء، خرج ليقول لك السبب.

- سأسجنك بين الرجال.

- لو باح لي بشيء لم أخبأه عنك.

- حسناً سأجعلك تقولين الحقيقة.

قام، وصل إلى كرسيه، جلس، صاح بصوت خشن على حرّاسه، دخل شرطيان.. قال لهما:

- ضعوها عارية بين الرجال.

لم تتمالك المرأة نفسها، أطلقت صرختها، الشرطيّان واصلا سحلها، وهما يمزقان ثوبها، قام الضابط، توجه إلى النافذة، وقف يراقب شرطته، كانوا ينتشرون على جانبي الشارع الرئيس للبلدة، بينما الصمت يغلّف كل شيء، عاد وجلس إلى طاولته، صاح من جديد حرّاسه، دخل الشرطيّان، وقفا أمامه.. قال لهما:

- هاتوها.. ؟؟

خرجا الشرطيان ردحاً من الزمن، عادا واجمين.. تمتم أحدهما:

- سيدي ماتت.

قام من وراء الطاولة.. صاح:

- كيف..؟؟

أجابه نفس الشرطي:

- فاضت روحها بين الرجال.

أشار لهما فخرجا، جلس ينقر بسبابته الطاولة، في محاولة مرتبكة لنسيان ما جرى..!!

* * *

بدأت الناس تعمل بيوت جديدة، رغم البرد وشدّة الريح ورطوبة الأرض بركة سماوية عوّضت خساراتهم الجسيمة، وفرت لهم وقتاً ثميناً، كان ممكناً هدره، من أجل جلب الماء، لعمل الطين اللازم للبناء، بعدما الماء صار بعيداً عنهم، ماء الوادي أصبح (خائساً) جرّاء تجانسه بمجاري البيوت، بجثث حيوانات نفقت وانتفخت وراحت تتفسخ، لتستقطب طيور عملاقة غريبة، وكلاب شرسة، تتنافس على كل شيء سابح، متخيلين كل ما يطفو قطعة لحم شهي.

بنوا بيوتات طينية بعدما حصلوا على تراخيص شفّهية، من قبل النقيب (مالح)، صاروا يمتلكون منازل تقيهم البرد المتواصل، حصلوا على دفعة واحدة من المعونات الغذائية، دثر عسكرية مستهلكة، بدءوا حياتهم من جديد، حياة الكفاف، كد وحرمان، والعمل لدفع غائلة الجوع، نستهم الناس، أهملتهم الحكومة، فما يجري من تغيرات في البلدة والبلاد، بدأت تستقطب الانتباه، وتعدو الجميع الانخراط في عالم جديد متحرر، خالي من قيود متوارثة، من التخلف، بعد أيّام قليلة صاروا ناس عاديين جداً.

* * *

* * *

شاع في البلدة، الملاّ (صالح) اختفى، بعد خروج الرجال من الزنزانات، فهو مذ جاء لم يغادر البلدة، سكن في بيت ملاصق للجامع، واصل قيادة الجموع المؤمنة في الأوقات الخمس، قبل أن ينفك الجمع، ويتحول إلى أنفار في أواخر العمر، يريدون نهاية سعيدة، موت آمن وعذاب خفيف.

الخبر ظهر تافهاً بادئ ذي بدء، خبر عادي، لا يشكّل لمعاناً ذهنياً أمام خبر فناء الغالبية العظمى من (الغجر)، لا شيء يذكر أمام ما حصل، اعتقالات غير معقولة للناس، استجوابات أرّخت بشكل فاضح تواريخ سياط تنطق ظلماً على أديم أجساد يابسة، مات البعض قبل أن تأتي الأوامر (العالية) إخراج الناس من الزنازين، لأن حاكم العباد والبلاد مشغول جداً بنفسه، يتهيأ بكامل أفكاره النيّرة وكل أموال البلاد لاحتفال تاريخي غير مسبوق يليق بمقامه، أمر زبانيته بجعل يوم مولده الميمون يوماً وطنياً خالداً، تناثر حلوى الفرح، امتزج بدموع الأسى، ناس استقبلت رجالها، ناس استقبلت موتاها، كفتان متعادلتان ميزان السلطات الثورية، واصطبغت جدران المنازل بمقولات حماسية. .

** الفرح لا يأتي إلاّ بتضحيات جسيمة.. !!

** نجوع ونعرى خدمة للقائد المفدى.. !!

** يومك الميمون زادنا لتحرير الوطن من نير العبودية.. !!

** ميلادك خبز دائم.. !!

** ميلادك حياتنا الخالدة.. !!

* * *

عادوا لمواصلة حياة محترسة، حياة بدأت توسع من دائرة المرح والمجون، حيث البيت الصفيحي الكبير، تجتمع الآلام، تتبخر على أنغام العود العازف وضربات الطبول المتناغمة، ورقصات الرجل النحيف عزف القلوب، كان الرجل النحيف رجل الخير يتقافز في الهواء، يهبط ليخلع قلوب المحتشدين، الذين زحفوا من كل بيت، لان الدخول مجاناً، مكبرات الصوت لمركبات الشرطة وزعت حلوى الفرح في الأزقة، بمناسبة الفرح الوطني الكبير للحاكم، الكل رأى وجوه جديدة للفجر، وجوه خرجت من الخيال، وحده الرجل النحيف، كان الباقي حياً يرزق من الجوقة الغجرية التي نفقت أو تعوقت جرّاء التسمم.

لحظة عادوا انتبهوا لتلك الحالة، لسان حالهم ردد بشكل جماعي:

- لماذا لم يتسمم راقص (الجوبي) مع قومه.. !!

* * *

صبيحة اليوم الثالث لاختفاء الـ(ملاّ)، وصل النقيب (مالح) إلى الجامع، يتبعه حاشيته المسلّحة، دخل بحذائه ماشياً على البساط

المفروش، وقف بين جموع المصلّين.. صاح بصوته العالي:

- أين هو رأس البلاء..!!

لم يجرأ أحد على الكلام، قطعوا صلاتهم وأنصتوا خاشعين لضابط لا يحترم حتى نفسه، عرفوه يوم الاستجواب الكبير، ذاقوا وبال قسوته وشربوا من دورق لا رحمته.. صاح ثانية:

- أين هو رأس الفتنة.. !!

تكلم رجل طاعن في السن:

- سيادة النقيب، لا علم لنا بما يجول في ذهنك.

صاح الضابط:

- اقفلوا عليهم الأبواب.. !!

تقدمت الشرطة، ألقت الأجساد العشرين إلى الأرض، ربطت معاصم الأيدي، كممت أفواههم المتوسلة، وخرجوا بعدما غلقوا بابي الحرم عليهم، قبل أن يغلقوا، الباب الخارجي الرئيس للجامع أيضاً.. !!

* * *

في الصباح التالي..

وجد النقيب (مالح) نفسه أمام خبر مفجع، خبر شاع فجراً، وجد مكبرات الصوت تصدح في الضياء المبكر، تعلن للبلدة أن (الله هو الأكبر والأعظم رغم كيد جبابرة الأرض)، صاح في شرطته، اندفعت المركبات باتجاه الجامع، وجدت الباب مفتوحاً، الفناء خالياً، ساد الذعر بينهم، عادوا يجرّون أذيال الخيبة، وقف

أحدهم أمام النقيب الواقف قرب النافذة، فاقد الصبر، لاهثاً ككلب ظلّ دربه، دون أن يتكلم القادم إليه.. قال:

- في ساعتين تجلبون الفاعل.. ؟؟

صمت.. ثم أضاف:

- وكل المحتجزين.. !!

خرج الشرطي، نقل الخبر إلى زملاءه، اندفعت المركبات مرتبكة، رافعة أصوات صريخها، باتجاه منازل تلك الفئة التي كانت متواجدة في فناء الجامع، وجدت المنازل مهجورة، ليس بوسعهم العودة من دون غنيمة، تدربوا جيداً على تقليعة مهنتهم، وجدوا نقل كل مصلّي ملتحي أسلم لهم، قبل أن يقوم النقيب بسجنهم، أو تحليق شواربهم وحواجبهم، نقلوا عشرين شاباً ملتحياً، زجّوهم داخل الزنزانة.

تقدم نفس الشرطي الذي تلقى الأوامر، وقف أمام النقيب بشيء من الفخر، قبل أن يتكلم.. قال النقيب:

- حسناً فعلتم. . كنت أتوقع عودتكم بقرابين تسلية.. !!

* * *

مرّت أيّام على الحملة الكبرى لتعذيب الضحايا، لم يحصل النقيب على أدلّة نافعة، توصله إلى قناعة تامة، أن ما يجري في البلدة مجرد بوادر عفوية، لا تشكل خطراً على أمن الحكومة الجديدة، أطلق سراح الضحايا الشباب، بعد مرور أسبوعين على احتجازهم، في احتفال تعذيبي غير معلن، أشرف على حلاقة

وجوههم نتفاً، وسط صرخات واستغاثات، قادوهم بين الأزقة داخل عربات يدوية عرايا، ليتفرج الناس عليهم، قبل تحريرهم داخل السوق كما خرجوا من (......) أمهاتهم.. !!

* * *

ظهيرة ذلك اليوم، وصله خبر جديد، وجود جثث طافية على حافة النهر، أكتشفه مزارع شاب فجراً، تعذر عليه الوصول إلى الشرطة، بسبب انشغالهم بالتعذيب الجماعي، حجز المزارع تحت رحمة استجوابات عشوائية، للوصول إلى لب القضية، سارت الناس في مواكب غير منتظمة، من فوق جرف النهر، رأوا جثث آدمية الشكل تطفو في الجهة الثانية، لم يجرأ أحد يهبط إلى الماء البارد، جاءت مواكب الشرطة، أنزلت قارباً يعمل بموتور، صعد ثلاثة شرطة، انطلقوا وسط صمت كبير خيّم على الناس، أتوا.. لم يجلبوا معهم الجثث الطافية، توقعت الناس توقعات متناقضة، بعضهم توقع أنهم قادمون لأخذ قوارب كبيرة لنقل الحمولة، آخرون صمتوا في انتظار نتيجة حتمية لابد أنها ستأتي، وصل القارب، الشرطة الثلاثة هبطوا إلى الجرف، حاولت الناس أن تتقدم، بعضهم يدفع البعض، بنادق متهيئة أوقفت الرغبة الجماعية، أمرت الشرطة رجوع الناس إلى مساكنهم، ما أن صدحت طلقة فوق رؤوسهم، اندفعت الجموع هائجة تفر، بعضها تسقط فوق بعض، ثار غبار كبير متنامي تحت الأقدام الراكضة.

في اليوم التالي عرف الناس القصة كاملة، كانت جثث حمير

نافقة منتفخة طافية.. !!

* * *

وصل الخبر كل بيت، خبر موت الحمير، التي نقلت على ظهورها (الخبز وتمر الزهدي) في ذلك الموكب الشعبي الكبير، يوم باغت الرجل النحيف أهالي البلدة، بمعونته الكبيرة، الرجل الذي يرقص كل ليلة رقصة (الجوبي) الشهيرة، داخل المملكة الصفيحية لـ(لفجر) بلا تعب، على إيقاع الطبول المتناغمة، وسط حشد غجريات لامعات الخدود مكتنزات الأرداف.. !!

ماتت الحمير، شاع خبر حساس، الحمير شربت ماءً مسموماً، قبل أن ينتبه رجل لفكرة تناقلتها الألسن، بدت واقعية:

- لماذا تأجل موت الحمير عن موت الفجر يوم التسمم.. !!

بعض الناس توقعت، أجساد الحمير، تمتلك قدرات مدهشة في مواجهة الأمراض، البعض مستغرباً بحث عن قشة الحقيقة، قبل أن ينبري شاب في العشرين.. قال:

- ربما محاولة التسميم أعيدت.. !!

تلك الجملة كانت كافية لإدخال البلدة إلى معمعة نفير آخر، اعتقالات أخر.

اللجنة الصحية البيطرية التي تدارست الموضوع، بعدما شرّحت الجثث، توصلت إلى وجود نفس المواد، (شديدة التدمير) داخل دم الحمير، أربعة وعشرون حمار نفق في ليلة واحدة، تم استجواب الحرّاس كونهم الصمّامات الأمينة والسدود المنيعة، التي زرعت

حول بيوت (الغجر)، تم حبسهم في ذمة التحقيق وإلقاء التبعة كاملة عليهم.

حرروا الناس من غير استجوابات، حصل لغط تطور إلى خوف، الخوف جمع الناس على مخاوف تتبع قبل أن ترسوا سفينة القلق بهم على رمال متحركة.

بعضهم قال:

ـ الكوارث لا تتركنا.

بعضهم قال:

ـ حياتنا بدت لا تطاق.

نبتت فكرة سرعان ما وجدت العقول كلّها أراضٍ خصبة لإنمائها.. !!

* * *

تفاجئ النقيب بخبر مقلق، كثير من البيوت لم تفتح أبوابها، زحفت أرتل الشرطة، بدأت خلع كل باب مغلق، وصله الخبر اليقين، لم يحتمله، أعتبر القضية عملية تمرد جماعي ضد السلطة، كون العائلات نزحت بصورة جماعية، من غير تراخيص حكومية، وتصاريح مرور عبر السيطرات، وزّع شرطته حول البلدة، في الممرات السريّة المفضية إلى سلسلة جبال (حيران)، خشية استمرار الهجرة الجماعية عن البلدة، فيكتشف ذات صباح سعادة النقيب (مالح) أنه وحيداً من غير حماية، في بلدة تحيطها جبال مخيفة، مزابل هائلة، وكلاب غريبة لا ترعوي ولا تسكت

ليلة واحدة عن ترديد نشيدها الحيواني..!!

* * *

لم يستمر معول القلق نهش رأسه طويلاً، ورده خبر مفرح، أخمد فيه حريق قضية الهجرة، أستلم الخبر براحة تامة، طلب إعادة الجملة على مسمعه مرات، كي يسترد كامل نشاطه العسكري:

- سيدي.. الـ(ملاّ) عاد من غيبته.

قاد بنفسه حملة كبيرة لاعتقاله، وجده يصلّي، تقدم منه شاهراً عصا غليظة، تراجع لحظة كاد يهوي على مؤخرته الضخمة، وقف صنماً وراء جسد بخشوع يسجد، شعر النقيب بشيء قاهر حجّر رغبته، أوعزت لنفوس الشرطة أن تتلاعب، لحظة التمسوا استخذاء سيدهم، أنهى (الملاّ) صلاته. قام وواجه النقيب مستفسراً:

- شيء مكتوب علينا، ليس بوسعنا تغيير دفة المقادير..!!

واجماً، واقفاً، بحث النقيب عن نفسه، أكثر مما شغله الأمر الذي جاء لأجله، لم يجد لسانه معيناً يعينه لتفريغ حمم متراكمة، وجده فاقداً أصوله البوليسية، عبارة مفروضة، عبارة سوقية خرجت باستحياء منه:

- غداً تعال إلى الدائرة.. !!

* * *

فرح الناس، بدأت الألسن تسرد بلا تردد، جهراً لا همسا، قصة

انتصار الأيمان النظيف على الجبروت، على الوقاحة السياسية، كلام المنازل معلن، همسات الناس، ثمة آذان رهيبة منصوبة في كل مسامة أو شبر أرض، النقيب (مالح) يعلم بما يقال، وشاة يقرؤون، يفسرون نظرات الناس، يفككون خيالهم، يقتنصون أحلام كل فقير، عيونهم لا تنام، آذانهم تلتصق بكل فم يحكي:

- تبيع الضمير بحفنة شعير.. !!

هكذا وصفهم الملاّ (صالح) مراراً وتكراراً في مواعظه الدينية.

في تلك الليلة خرست الطبول، توقف طيران الغبار من المملكة الصفيحية، لا رقص، لا أغاني، الناس وجدت فرصة نادرة للتكفير عمّا اقترفت النفوس من آثام، والجلوس بإكراه في بيت (المنكر) على حد زعم أهل الأيمان، بدأت الألسن تستغفر والأكف ترتفع، والقلوب مكلومة، خاشعة تطلب العفو الشامل عمّا اقترفت من ذنوب، بدأت حبيبات الدموع في المآقي تصطنع، كل واحد يحاول البحث عن فاصل يقدح شرارة البكاء، تحت ضغط الخجل العام.. !!

* * *

مع تباشير الفجر، انطلقت الجموع بهدير الاستغفارات إلى الجامع، أدّوا صلاة الصبح، عادوا، وحده الملاّ (صالح) توجه إلى دائرة شرطة البلدة، شعر بتبدل جوهري في تصرفات رجال الشرطة، رعب واضح يستوطنهم، خشوع شبه أيماني يسريلهم،

خذلان تام يخمد شراستهم، عيونهم تبحث عن نفحة مسامحة، أبدانهم في تلك اللحظة نزفت كامل ماء الوقاحة والشرور.

قرأ لسان حالهم بنظرة إيمانية دقيقة التصويب، وجدهم يطلبون العفو، لأنهم لا يواصلون الصلاة خلفه خوفاً من الطرد من وظيفتهم الأمنية، حتى أولئك الذين كانوا يرافقون النقيب (مالح) إلى المسجد في فترات متفاوتة، لا يصلّون، كانوا يقفون في استعداد تام، أيديهم على زناد البنادق، عيونهم تبحث عن الحركات الغامضة لأي مصلي.. !!

استجاب (الملاّ) غريزياً لدعوات صامتة، أباحتها عيونهم المرتجفة، صعد درجات السلّم، وصل غرفة النقيب (مالح) الذي - من خلال النافذة - عرف ما جرى، مشى وفتح الباب.. سمح لـ (ملاّ) الدخول بشرف مصطنع، قاده كخادم مطيع للجلوس هذه المرّة. . قال له:

- حسناً جئت في هذا الوقت.

قال الملاّ:

- ليس لدي من الوقت ما أهدره من أجل لهو الدنيا.

- أعتقد أنك تركت البلدة، لشيء غامض، بالنسبة لنا كجهة مسئولة، عن الأمن ومصالح الناس يجب أن نعرف كل صغيرة وكبيرة تهم الناس.

- هذا شيء يخصني.

- إن كان يخصّك فلا بأس به.

- كيف تزن القضيّة.

- الأمور المقلقة بدأت تنمو، يجب عدم تفسير الأشياء الحاصلة، خارج نطاق الوضع الجاري.

- كنت في مهمة شخصية، موجزها زيارة أخ في الله، ليست لها صلة بما في ذهنك.

قام الـ(ملاّ)، قام النقيب، تقدم منه، وقف لصقه، تلاقت العيون.. قال:

- الخضوع للأوامر واجب على كل من يسكن ضمن جغرافية البلدة.

- أرجو أن تكون أوامرك متماشياً مع واقع حال البلدة.

حصل الصمت، سار (الملاّ) نحو الباب، لم يلتفت، خرج تاركاً الباب مفتوحاً، ظلّ النقيب (مالح) يشيعه بنظرات خرجت من نطاق الرؤية، وصلت إلى أعماقه البعيدة، إلى معين المزاج، إلى بئر الرغبة، إلى مستنقع الغموض التام.

* * *

* * *

مع إطلالة الربيع، تهيأت البلدة لتستبدل رونقها المزمن، الأرض بدأت تزهو بخضرة غير متوقعة، عرفت الناس، الحياة تريد معاودة الضحك، السبب يعود للمطر، الذي هطل من وجهة نظر بعض الناس، بينما رأت عقول أن التبدل الجوهري في الموازين السياسية للشرطة، النقيب أيضاً، وراء الراحة التي عمّت حياة الناس، لم يعد هناك - بعد الهزيمة التاريخية للنقيب أمام يقين (الملاّ) - اعتقالات عشوائية، لا موت بالرصاص المتعمد، الرقص الليلي يتواصل، (الفجر) يواصلون احتفالاتهم الكونية، ناس تذهب، ليس بوسعها ضياع فرص العمر القليلة، ناس تتحسر، لا تملك مدخولات مالية تؤهلها الفوز بتلك المتع الجسدية، والمسرّات الليلية، كي تقبر الجراحات المتكاثرة في أبدانها.

* * *

أنتشر خبر جديد، خبر مفاده أن الرجل النحيف، يروم تعليم الشباب فن الرقصة الوطنية الشهيرة، الشباب وجدوها فرصة مثالية لتحديث أساليب حياتهم، لم يكن الخبر كما فهمه الناس، أو تناقلوه، مجرد رغبة طارئة، فالخبر أصدره ضابط البلدة

النقيب (مالح)، رغب المشاركة الوطنية الكبرى في فرح الحاكم، بمناسبة يوم ولادته، تفتق ذهنه عن الفكرة، تناقشها مع (الفجر)، تشكلت خلية عمل مصغرة، بقيادة راقص (الجوبي)، أعلن النقيب رغبته، تشكيل تجمع شبابي، للمشاركة في مهرجان البلد الكبير، أسوة بمشاركات البلدات الأخر، الشباب فسروا الخبر وفق رغبتهم، طالما حاولوا محاولات فاشلة، مع أنفسهم سراً، تعلم تلك الرقصة الوطنية الخالدة.

عبارات بدأت تظهر على الجدران لا تؤثر في السلوك السياسي..!!

(من لا يجيد رقصة ـ الجوبي ـ ليس بمواطن صالح)..!!

(ناقص شخصياً من لا يرقص الجوبي)..!!

(من لا يرقص ـ الجوبي ـ مناهض للوطن)..!!

(أكمل صفاتك الوطنية مجاناً بتعلم الرقصة الأجمل في الكون).. !!

(من لا يعرف ـ الجوبي ـ ليس منّا).. !!

(الجوبي روح المواطنة الصالحة).. !!

(لا نريد طعام.. علمّونا ـ الجوبي ـ يرحمكم الخالق)..!!

(الجوبي.. الجوبي.. الجوبي.. هلا باليرقص جوبي)..!!

(كلنا سنرقص جوبي.. قولوا للسيد الرئيس كلنا سنرقص جوبي)..!!

الشاب، الشابة، الكل حاول تعليم نفسه، تقافز عشوائياً، بلا انضباط، ليلاً ونهاراً، في المنازل، في الأزقة، الكل سقط على

قفاه، شبعوا ضحكاً على أنفسهم، لم يملوا من فرك عجيزاتهم، لم يخجلوا، واصلوا إصرارهم قبل أن يأتيهم الفرح من حيث لم يحتسبوا.

* * *

جموع شبابية تندفع، ترغب تسجيل أسمائها، تجمهروا عند نافذة غرفة خلفية تابعة لإدارة البلدة، رفعت يافطة فوق النافذة، بلون صارخ كتب كلمتان كبيرتان:

** !!الرقص بالمجان!.. !!

من غير تكليف أعناق الآباء أعباء مادية، وزر ثقيل لا طاقة لهم دفع النفقات المترتبة، صدور الآباء تثلجت، في خضم الفوضى، تناثر خبر محير، إدخال مادة (الرقص الشعبي) ضمن المناهج الدراسية الحديثة، تراث وطني ستقوم الحكومة الجديدة العض عليه بالنواجذ، حفاظاً من انقراضه أمام مخالب رقصات وحشية تسللت خلسة إلى صدر البلاد، هجمات لا تتوقف، تصدرها فئات مضادة للدولة، تريد تخريب النفوس، تأخير عجلة التقدم، رقصات شاذة تأتي من وراء الحدود، غربية، شرقية، فوضوية، لا تناسب المرحلة الثورية، لا تنسجم مع تفاصيل الحياة القائمة على (وحدة الصف)، رقصات تنفر وتشتت الذوق العصري لمرحلة الاشتراكية.

* * *

هذيان شعبي دفع (الملاّ) يخطب يوم (الجمعة)، شدد على ضرورة منع الأبناء تعلم فن الرقص، كونه من تعاليم - إبليس -

الملعون، خطوة من خطواته تقود المرء إلى انحلال أخلاقي تام.

قال جملة شهيرة في خطبته النارية:

- من يورط نفسه بتعليم الرقص، سيجد نفسه وذويه (حصب جهنم)..!!

الأمر الذي دعا النقيب (مالح) اعتقاله، أدخله زنزانة البلدة، وجد (الملاّ) نفسه محشوراً بين نساء سجينات، رغب يكلّم النقيب، لم يعره الحرّاس أذناً صاغيّة، نسوه بسرعة البرق، أجابت سجينة:

- ها مولانا.. سجنوك مع النسوان.

أستغفر ربّه، دعاه أن يتدخل، يوقف الحماقات الجبروتية المستفحلة، لرجل مراوغ، مخادع، ناكر نعمة.

تناقلت ألسن خبر سجن (الملاّ) مع نساء بلا أخلاق، نسوة وجدوهن في أمكنة غير صالحة للسمعة، فوق جرف النهر، داخل البساتين مع السكارى، بائعات لبن وقيمر، يؤتين من أماكن بعيدة، يستغلهن أصحاب العربات اليدوية وصيادو السمك.

تسع نساء متفاوتات في العمر، داخل غرفة مساحتها أربعة أمتار في أربعة أمتار، مختنقة، معتمة.

لم يرفع (الملاّ) رأسه، مشغولاً يبسمل ويحوقل. .

باغته صوت.. واحدة أخرى ندهت:

- يقولوووون الملالييييي يحبووون الفراااش الخشن.

سمع (الملاّ) صوت قرقعة مفتاح الزنزانة، نهض وتقدم من الباب، وجد شرطياً يناديه، تبعه، وصل غرفة النقيب، لم يستقبله

كما أستقبله في المرة السابقة.. قال له:

- بدأت تقود ثورة على الحكومة.

- أنا أقود ثورة.

- ماذا تسمي خطبتك الجهادية.

- أريد توعية الناس.

- ترغب بقاءهم في حوض التخلف.

- أنت تعتقلني بغير حق.

- أنت تمنع الناس من تلبية دعوة الحكومة.

- ما هي دعوة الحكومة.

- الحكومة تريد مشاركة الناس في المنهج الوحيد لسعادتهم.

سكت (الملاّ)، وجد نفسه داخل غرفة مكهربة سياسياً، بمواجهه إنسان جاء من عالم غريب، لا يمتلك من الصفات البشريّة، سوى هيئة ثعلبية، قرر وقف مجاريف لسانه، رفع رأسه، كان النقيب ينحت عينين من فولاذ فيه، لمعان مخيف يشع من أعماق غامضة، هزّ رأسه، وجد لسانه يفصح:

- أشعر بتعب كبير، ربما فقدت بعض توازني..!!

أدرك النقيب، غريمه تنازل كلياً عن قيّمه الجهادية، تخاذل، لا يرغب المقاومة، فرح غمره، حقق التعادل الشخصي لذاته، وأستعاد اعتباره المسلوب منذ ذلك الصباح الذي تباهت به الألسن، يوم حقق (الملاّ) نصراً لسانياً عليه، يوم تركه مستخذياً، مهزوماً، رغم رهطه المسلّح بالبنادق، فهو صارع كوابيس كثيرة، رغب يقنع نفسه بالذي جرى له، لكن فرصة حياته لم تطل كثيراً، ها

هي الفرصة تأتي مثالية، كافية لتدينه من حيث لم يحتسب.

انتهى الصمت، شبع النقيب فرحاً، (الملاّ) شعر بوهن يتنامى، رغب مغادرة الغرفة، رفع رأسه، أردف بصوت تغيّر كليّاً عن صوته الحماسي:

ـ هل انتهى كل شيء.

تشجع النقيب، تقدم منه، وقف مشيراً بعصاه إلى عمامته:

ـ لا ترمي الحجر كيفما تشاء، ربما يرتد ويفلق هامتك البليدة.

تراجع النقيب بضع خطوات إلى الوراء، دون أن ينظر إليه. صاح:

ـ أعطني ظهرك..!!

* * *

الأرض بدت تزهو بخضرة طفيفة، تم افتتاح قاعة للاحتفالات الشعبية، مكان عام، للندوات الجماهيرية التي تلاحقت، في تلك القاعة أحتشد جمع كبير من صبيان وشباب ومتلهفون، راغبون تعلم فن الرقص الشعبي، معظمهم بكّر الحضور، جاوزوا اعتراضات عائلاتهم السريّة، كثير من الآباء وجدوا أنفسهم ملجمين، مكممي الفم، بعدما شاع خبر ما جرى للملاّ (صالح)، راحت الناس تجهر بصوت مرتفع تفاصيل تتشظى للحكاية، تقسم من غير تردد، أنّ (الملاّ) نام مع بائعات اللبن كلّهن في ظرف (ساعة سجن)، زادوا على كلامهم، بائعات اللبن رقصن عرايا أمامه، تناوب (الملاّ) كديك شاب على دجاجاته، كلام نقله حرّاس

النقيب (مالح) لا شك فيه، كونهم خلّص، أمناء في نقل الأوامر بدقة، ميزة رجال الأمن الموثوقين، في بلدان السياسة الواحدة، في زمن الدكتاتورية التي لن تنتهي، طالما الشعوب نائمة أو مخدرة تحت بنج الرهبة والبلادة، الشرطة لا يكذبون، أمر لابد من تعميمه، ينطقون بما يردهم تعاليم سلطوية، لا يجوز إضافة أو تحريف أيّة مفردة، كونكلام الحاكم مقدس لا يجوز تحريفه ولا تأويله، (نفذ ولا تناقش)، رأوا ما قالوه، حلفوا على ذلك بجهر القسم، الملاّ (صالح) فعل فعلته في لحظة يأس، بائعات اللبن واصلن شرح ذلك، بعد خروجهن براءة من الزنزانة، أكدن صدق الحكاية كلّها، يتجولن في الأزقة، وهن يبعن لبنهن، يتلذذن بسرد القصة لكل من يشتري لبن، قيمر، مسورات بحشود بشرية تتدافع، وجدن فرصة لا تعوض، أجبرن من يريد سماع الحكاية كلها الشراء، فلسفة جديدة أنتشرت في البلدة (اللبن مقابل الحكي).. !!

* * *

وصل الخبر إلى (الملاّ)، لم يفه بشيء، حانت ساعة الخطبة من يوم الجمعة، صعد إلى المنبر، تناثرت صيحات داخل فناء المسجد:

- لا تصلّوا خلف زاني.

- ماذا لديك أن تقول بعد الذي عملت.

- يا أهل البلدة أرجموه، ألقوه إلى كلاب (وادي الرمي).

ثار لغط كبير، لم يهد من معنويات (الملاّ).. صاح:

- دعوني أشرح لكم حكاية الزنا ياعباد الله.

ساد الصمت، الكل توقع حكاية مسلية، فتح كل واحد عيناه، أتلع أذناه، حبس شهيقه، ألتمس (الملاّ) الفرصة النادرة. قال:

- سمعتم حكاية الزنا يا ناس، لقد أبتلي من قبل النبي (يوسف) بذلك.

سكت (الملاّ) للحظة، أسترد بعض توازنه، وجد الأفواه تتحرك، الهمسات تعلوا، تحركت الرؤوس، الأجساد تعدل من جلساتها.. صاح:

- لا تحملوا أنفسكم أوزاراً ثقيلة، لا تصدقوا ما لم تروه بأعينكم، الشيطان يركبكم، أنتم تقذفون الأباطيل بحقّي، لااااااااا.. لم أزنِ. لااااااااا.. والذي نفسي بيده.. أنّه لقول زور مثلما اتهموا نبي الله (يوسف)، أن عذاب ربّي لقريب، هو من سيتكفل الدفاع عنّي، أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي، ولمن تاب، وأستغفر ربّه، وأصلح عمله وقوله، وسار على طريق الهداية. آمين يارب العالمين.. !!

هبط (الملاّ)، توقع المصلّون، مناهج الصلاة اجري تعديلات (حكومية) عليها، وفق مقتضيات السياسة الجديدة التي غربلت البلاد، فهم توارثوا خطبة (الجمعة) على أنها خطبتين، تردفهما الصلاة ركعتين، ها هو (الملاّ) يقلب الموازين الإستراتيجية لأهم ركن من أركان الأيمان، بعد سقوط مذل، مخزي على حد زعمهم، في أبلغ الأيّام للغفران، أيسرها لتكاتف البشر، العيون تحجرت، تراقب (الملاّ) الذي واصل مشيه بثبات مثلما كان، عدم

ظهور أي انفعال على تعابير سحنته، شق الطريق لنفسه، عابراً الجموع الجالسة، وصل الباب، خرج، تاركاً المصلّين في حيرة، بعضهم خرج، بعضهم راح يصلّي لنفسه.

اختفى الملاّ (صالح) عن بلدة (جلبلاء)..!!

* * *

جيء بـ(ملاّ) جديد، شاب ملتحي، لم يكن من أهالي البلدة، تناثرت أقوال متفاوتة، أنّه من بلدة جنوبية، سمرته حرّكت ذلك التوقع، أقرّوه بالإجماع، شاب نحيف يمتلك صوتاً ناعماً، ولد لا يبدو عليه الحماسة في كلامه، خطب أوّل (جمعة) بالناس، أكّد، الكثير من التعاليم الدينية السابقة، ناس غير متعلمين أدخلوها العقول، فتن تقود إلى طريق الضلال، بداعي أصلاح قلوبهم، وتصحيح مساراتهم الإيمانية المتشعبة، ساقت الرعية إلى مزالق حياتية، عقوبات (آخروية) لا مناص منها، اليوم صار كل إنسان يمتلك وعياً ثقافياً يؤهله لاستقبال الأشياء النافعة، والتنحي عن مضلات الفتن، الإنسان كائن متجدد يتطور مع الزمن، لا يصلح مجابهة زمنه بما كان الأولون يجابهون به أزمنتهم السالفة، لكل زمان نوع من العيش، عيش ينسجم مع المستحدثات والضرورات البشرية.

تحدث (الملاّ) الجديد كثيراً، كلماته جديدة على المخ، تعاليمه محيرة، تضبب الرؤية، وجدت العقول أنها في صراع جديد، بين ماضي ملغي بقرار سلطوي، وحاضر مرتبك غير

مفهوم، ومستقبل بدأ يتلاشى من بين اليدين.

جلسوا خاشعين، يائسين، مثل غرقى في نظراتهم الأخيرة اليابسة، شاب (يلخبط) عليهم دينهم، تركهم وسط دوامة شكوك، أنهوا صلاتهم، عادوا يهذون، جلسوا يتناقشون فيما سمعوا، تحول النقاش إلى تلاسن تطور إلى عراك أيدي وضرب سكاكين، بين فئات تتمسك بتراث الآباء، وفئات وجدت التجديد مطلب تاريخي، لابد تجديد مسارات الحياة المنفتحة، من أجل الخروج من شرنقة الفقر الدائم، بعدما تدهورت السبل وضاقت الحيل وتعذرت الحلول، قبل أن ينبري شاب متفتح الضمير ومتنور العقل ونافذ البصيرة.. قال:

- كل واحد يأتي ومعه فتنة جديدة.. !!

بعد ساعتين، صاحب ذلك الكلام الذي أنتشر كالبرق، وجد نفسه أمام النقيب (مالح)، فحصه بعيون بوليسية لا تخطأ، دار حوله دورات تفقدية.. قال له:

- لم لا تصبح (ملاّ) البلدة.

- رغبتي الأكيدة يا سيدي أن أصبح (ملاّ) البلدة.

- حسناً أنت منذ اليوم (ملاّ) البلدة.

خرج الولد، يغمره فرح جارف، سار يرسم في خياله المشهد، مشهد وقوفه على المنبر، بمسوح مكوي، عمامة كبيرة على رأسه، يجب تثبيتها كي لا تسقط، سيتحدث ما عنده من معلومات، سيسهر الليل ليكتب على أوراق الكثير من القضايا الشرعية، سيخطب بحماسة، الناس تنظر إليه، ستحسده على

مكانته الجديدة، بعدما فشل أن يغدو مطرباً يهيج مواجع القلوب على مسرح البلدة، أيّام شارك مع مجاميع أرادت أن تطلق مواهبها الغنائية، أمنية ماتت بعدما وجد صوته لا يؤهله للتفريد، حنجرته كانت متخشبة جرّاء الجوع المتواصل وأكل الخبز اليابس، سار منتشياً لمسافة، باغتته رصاصة قنّاص من فوق البناية المركزية للبلدة، سقط وتلوى، سحلوه والقوه على عتبة بيته، لم يكن له أب ولا أم، وحيداً، يتيماً، مات أبوه غرقاً في الفيضان التاريخي الأوّل، أمّه أيضاً غرقت يوم حاولت نقل الحطب من الجهة الثانية للنهر إلى الجهة التي تسكن، كانت خبّازة تخبز خبز الناس مقابل أجور بخسة، ليس بوسع أحد تفسير سر قتل الولد اليتيم، الكل يعرف السبب، يعرف، من يقول الحقيقة يرقن قيد حياته، يغدو قرباناً للسلطة الجديدة، رصاصات لا تخطئ جاهزة لحماية راعي قطيع البلاد من عابثين، طارئين، حاقدين، مناوئين، غير مرغوبين فيهم..!!

* * *

بعد يومين من قتل الولد اليتيم، شاعت صرخة، ندّت من امرأة خرجت لجلب الفطور الصباحي، وجدت رأس شاب مقذوف على الرصيف، حوله كلاب تقعي، صرخت وسقطت مغمى عليها، هرعن نسوة وجدن أنفسهن يتهالكن حولها فاقدات عقل، فاقدات بصر، تجمع خلق كثير، كل واحد رفع امرأته أو أخته، حملوا النساء منطلقين، قدوم الشرطة أمر مفروغ منه، جاءت مركباتهم تزعق، هبطوا وقاموا بتفريق الناس، شاهرين بنادق عتيقة بوجه

من يتلكأ في انسحابه، نقلوا الرأس في كرتون ورقي إلى النقيب (مالح)، لم يهتز له عصب، أخرجوا الرأس المقطوع، وضعوه على طاولته، سأل الشرطة عنه:

- رأس غريب ليس من أهل البلدة.. (قال أحدهم).

أمر وضعه في كيس نايلون ونقله ليلاً، لإلقائه في النهر، قام حارسه الشخصي بما أمر به سيده، تقدم من الباب، قبل خروجه ناداه النقيب، استدار، تقدم منه.. همس:

- ضعه بين المسجونين حتى يأتي الليل.. !!

هزّ الحارس رأسه، سار، خطواته مرتبكة، تلبية لأمر سيده، الذي قام من وراء طاولته، تقدم من النافذة، ألقى نظرات حديدية، وجد الناس تتقاطع في الشارع الرئيس، دوت صرخة، تبعتها صرخات وضجيج، استدار وتهيأ لخبر مفزع، دخل حارسه المطيع، وقف ككلب يلهث، ألتقط أنفاسه. . تمتم:

- سيدي لفظ سجين روحه. . !!

* * *

بعد يومين، وجد النقيب (مالح) نفسه أمام رأس جديد، رأس شاب من أهالي البلدة هذه المرّة، وصلت كنيته كاملة إليه، شباب انخرط في (المعسكر الوطني) لتعليم فن الفرح والسعادة، تلك اللحظة أدخل النقيب (مالح) نفسه في نفير عام، أدخل شرطته في حالة يقظة دائمة، حذر شديد بعدما شم رائحة مؤامرة وشيكة في البلدة.. !!

* * *

* * *

استفاقت الناس..

نباح غير وارد في ذاكرة البلدة، نباح بدأ مع الضياء الأوّل للفجر، وصفوه فيما بعد بـ(هدير الكلاب)، ظلّ يتموج مع كل ريح مهما كانت درجة شدته، نباح يسكن الصدغين، يخثر العينين، يلقي الأجساد أسيرة، تحت فرامل نعاس لا مفك منه، ذلك النباح دفع الناس سكارى، بحثوا عن أقراص مهدئات، راجت مبيعاتها في تلك الأيام، توصل البعض إلى وسائل الغش، الخديعة، قاموا بصناعتها في البيوت، وجدوا أكوام (كلس حجري) متراكمة مع مهملات ومخلفات (قاطرات بخارية) أخرجتها الحكومة الجديدة من نطاق الخدمة، من باب القضاء على آخر (براءة للحياة الشعبية)، التي تساوي في المعايير السياسية (الحياة الاشتراكية)، سراً نقلوا كميّات كبيرة منها، صنعوا (كوَر) طينية صغيرة، بعيداً عن أعين الوشاة، وضعوا أحجار (الكلس) على هيئة طبقات متدرجة داخل تلك الأبراج الصغيرة، ثلاثة أيام، خمسة، سبعة، نار متأججة، تتواصل تحت مراقبة صارمة لدرجة حرارتها، يتم الحصول على إنتاج علاجات مجهولة العواقب، لم يتوصل أحدهم معرفة تلك العلاقة الرياضية التي تربط بين فردية

الأيام، وطبيعة التحويل بالنسبة لعنصر (الكلس)، البعض قال:

- كلس من ثلاثة أحرف.

البعض أضاف:

- الكلس من خمسة أحرف مضيفين عليها ألف لام التعريف.

البعض قال:

- القضية تتعلق بالسماوات السبع والأرضين السبع.

لم ينشغل أحدهم بالقضية، اعتبروها مزح مجانية توالدت جرّاء الحالة الطارئة، راحت الهمّة تنصب بتركيز عال، على إنجاح المشروع الجديد المريح، الطلبات باتت تتزايد، هذيان عام، شامل، يكتسح الناس بشكل جنوني، العملية لم تكن بعيدة عن الأذهان، المتغيرات الحياتية، جعلت من العقول بالونات أسفنجية متخثرة، لا تفكر إلاّ بالآتي، ليس هناك رغبة لاسترجاع الماضي، ولو من باب التسلية، أو اتخاذ العبر، والاستفادة من دروس الماضي الأليم على طول الخط.. !!

* * *

في أزمنة القاطرات البخارية، كان هناك برجان طينيّان، يتم رص تلك الأحجار فيها، إذكاء نار لا تخمد، بعد مرور أيام يتجمهر الأطفال حول العمّال، يفرحهم مشهد إخراج أكوام (النورة)، بعضهم وضع أجزاء متناثرة داخل وعاء ماء، مندهشاً راقب الفوران الجحيمي الحاصل، قبل أن تذوب الكتل الكلسية المشوية إلى مسحوق طحيني، بعض العقول استرجعت نفسها،

وجدت فرص مثالية للخروج من شرنقة الفقر وتجلياته، نهبت تلك الأحجار، التي تم تكويمها في مستودع فضلات القطارات الملغاة بحكمة الحكومة الجديدة، بعد استلامها السلطة بـ(انقلاب أبيض) كما روّجت الإذاعة الوحيدة للبلاد، انقلاب من غير سفك دماء، هكذا فسرت المفردة الأيديولوجية الجديدة للناس، لتقتنع أن الأمور ماضية على ما يرام، بعد رواج شائعة خارجية تؤكد:

- البلاد ستخوض حرباً أهلية دامية، جرّاء الغدر الذي حصل داخل قصر الزعامة.. !!

* * *

يتم تحويل الأحجار المزججة بعد مهرجان (شوي) إلى مساحيق طحينية، تعجن، تصب في قوالب أقراص صغيرة، تضعها أيدي مدربة في أكياس نايلون، تطرح على أرصفة شارع السوق المزدحم بناس عاطلين:

- (عقاقير شافية).
- (أفضل مهدأ لضجيج الرؤوس).
- (لا تحتار.. لا تقلق.. تناولها، في بحر النوم أغرق).

أصوات تنادي، أسعار تشجيعية، متدنية، غايتها جذب مواكب الهاذين، تم رفع أسعارها تدريجيا بعد النجاحات المتوقعة لها، من ذاقها وجدها تحمل مذاقاً حامضيّاً، يكثر من تناولها، قبل أن يجدوه هاذياً مصدوماً ينهض، يسقط، يقف، يتأرجح، يغمغم، يحاول عبثاً مسك عصا النفس الدائخة، يسقط الجسد بعد سلسلة

أرجحات بهلوانية، مثل أرجحات الأطفال في أولى محاولات المشي، تحولت البلدة إلى سينما ناطقة، مشاهد عفوية، كل إشكالات الرقص المجاني، غير الخاضع للانضباط الواجب، قهقهات تعلو من النوافذ، أمام عتبات المنازل، نساء، أطفال، فتيات، ضحك تناغم، أنسجم، أنتشر كوباء فتّاك في أحياء الفقراء، تهرع رجال البلدية، تتناوش الأجساد المرتعشة، تنقلها بعربات خشبية، تجرها حمير، سيارة البلدية لا وقود لها، الحكومة الجديدة، سحبت مركبات الدوائر، بسبب حالة التقشف، تطرح الأجساد بعشوائية من غير رحمة في حديقة مشفى البلدة، الردهات محجوزة دائماً وأبداً لأصحاب السيادة، من يملك مالاً كثيرا، حتى أوان عدم انشغالها تحسباً للطوارئ، المفاجآت، لا يجوز أشغال الردهات مهما كانت الظروف، (الطبيب) القائم بأعمال إدارة المشفى، وقف، حالة هستيرية فوق العادة، لا يجب الوقوف مكتوف اليدين، نموها كارثة، يتوجب استمرار تقديم مساعدات طبيّة لا تنتهي، جيش ثملين يتم نقلهم من الشوارع، من أزقة البلدة.. صاح:

- هذه مشفى، لسنا مزابل نفايات.

أتصل بالنقيب (مالح) الذي وجد الخبر فرحة تاريخية لا توصف، خبر سار، بوليسية من المرتبة الأولى، سيقحمه في مهمة وطنية كبرى، سيقوم بغربلة البلدة، رغب اصطياد مسبب الهذيان الشعبي العارم، قام بحملة كبيرة، نصب عيون لا تنام، وزع وشاة في أماكن منتخبة، تضم تجمهرات شعبية كبيرة، عاطلين، مهملين، هناك أسرار تدلق، مؤامرات في الخفاء تحاك، بعد يومين

وصله الخبر الممتاز:

ـ سيدي.. أكوام (حجر الكلس) سرقت من مستودع السكراب.. !!

* * *

(حظر التجوال) جديد، من غير بوادر أوليّة في البلدة، عيون تترامق، آذان تبحث عن سبب منع خروج الناس من البيوت، الـ(غجر) يواصلون فرحهم من غير خسائر، تم تعويضهم بما أقره النقيب كشرط أساسي لإطلاق سراحهم، كلاب تواصل (أوركسترا) تمزيق الأعصاب براحة تامة، لا أحد يقلق احتفالاتهم الكلبيّة، قضية (الملاّ) صرفتها الرؤوس من البال إلى الأبد، تطرق الأبواب، أفواج شرطة تقتحم البيوت، تفريل الأشياء، تخرج، بعد مرور ثلاثة أيام من تفتيش مبتذل، تذمر شعبي عصيب، كونه أطول (حظر تجوال) شهدته البلدة عبر تاريخها الطويل، تم سحل ست عائلات كاملة، الخبر الكامل، أعلنته مكبرات الصوت للجامع في أوّل الليل.

عرفت الناس، قصة التلوث الشعبي بالسكر، من غير احتساء (منكر)..!!

* * *

* * *

على الحافة الوادي الكبير، العازل سلسلة جبال (حيران) عن البلدة، وقف كلب ونبح، ظلّ يستصرخ رفاقه المتخثرين على مزابل وحدات عسكرية، تأتي كل عام لتتعسكر في منطقة (ميدان الرمي)، لتعليم الجنود الجدد فن الرماية، ينسحب الجيش مخلفاً ورائه جبالاً لا تزول من القاذورات، وجدتها الكلاب السائبة (أسواق مركزية) مفتوحة، عظام طازج، صمون عسكري متحجر، اتخذت تلك المزابل (دولة رسمية) دائمة التواجد.

الكلب ظلّ ينبح، رفاقه منطرحين، لا تحدوهم رغبة نباح، أو معركة مع كلاب تزحف من أمكنة بعيدة، جائعة تبحث، تجذبها مصادر روائح مغرية تنتشر عبر الوديان والجبال، نهض كلب، رغب يتحرى مصدر القلق الذي يبعثه رفيقهم، مبدداً أشد لحظات النوم إمتاعاً، سار ببطء، كلب متناعس، وقف لصق صاحبه، رفع رأسه، نحت عينين حيث تذهب عينا صاحبه، أطلق هو الآخر نباحه، أنتبه كلب ثالث، تبعه رابع، في ظرف ربع ساعة صارت الجبال تتراشق، نباحات لا تنتهي من كلاب لم يستطع إنسان من بلدة (جلبلاء) إحصاءها.

* * *

صعد ولد إلى سطح المنزل، رغب يستطلع الأمر، وجد الجبال مع شمس الصباح تومض برؤوس سود تتحرك، خال القضية مداهمة (ذئابية)، هبط، هرول، وقع على أبيه النائم، لم ينهض حضرة الأب المحترم من نومه، بقى نائماً إلى الأبد، كان ميتاً من بداية الليل، أكد الطبيب لحظة فحصه، ميتاً جرّاء شربه ماء متسمم، تناول كميّة كبيرة من حبوب (الكلس)، صرخات علت، امتدت تختلط بـ (أوركسترا) الكلاب، أهمل الناس موت الرجل، فهو ليس الأوّل، وليس الأخير، من سلسلة الأموات جرّاء (حبوب الكلس)، أنشغل الجميع بما يجري قرب جبال (حيران)، شيء غير عادي يحصل، غير مسبوق الحدث.



ذئاب داهمت البلدة ذات زمن، حكاية سمعوها من الأجداد، عرفوا حصول مجاعة كبيرة في بلدان الجوار، دفعت الذئاب تهج بحثاً عن أرزاقها، وصلت ليلاً البلدة، عوت بشكل غير وارد، اجتاحت قبيل الفجر بقليل، بيوت تملك أغنام، أبقار، دجاج، أخذت كل ما موجود، تركت قتلى، خراب، من يومها بدأت البيوت تسيّج نفسها بالحجر خشية مداهمات تالية.

* * *

عادت الحكاية القديمة إلى ذاكرة الناس، توقعت مداهمة عنيفة هذه المرّة، الذئاب الجائعة سوف لا تبقي بشراً في البلدة، فالبيوت خالية من الأغنام، البقر، الدجاجات، الحكومة الجديدة

فرضت عقوبات مالية على من يؤويها، الحيوانات الداجنة لا تليق بالزمن الديمقراطي الجديد لسلطة قررت أن تكون نظيفة، لا غبار عليها، تناقلت ألسن قضية اللحظة، من سطح منزل لسطح منزل آخر، قبل انهيال همساتهم كهطول الحالوب على طاولة النقيب (مالح)، عبر نافذة غرفته، التي لا يغلقها مطلقاً، لسبب وجيه جداً، كون نوافذ دائرته بلا زجاج، الطلبية التي كتبها للجهات العليا، لم تلبى، البلاد تعيش مرحلة حرجة، مرحلة التكوين، تحتاج إلى دعم الميسورين، من يملك خشلات ذهبية، فليبادر، ليسارع في التبرع، التنافس واجب إنساني، مطلب ثوري، جهاد كامل القيافة، بلادنا تريد تنهض، ترغب كنس مخلفات التخلف الدائم، تريد تطرد الشركات العالمية الوهمية العاملة، أصحاب الاتفاقيات الغامضة، حفرت خطط سرطانية معقدة في جسد الموارد الطبيعية، أهلكت خيرات الشعب.

* * *

وصلت الشرطة، مزابل تسد الأماكن الصالحة لسير المركبات، هبطت أرهط مسلّحة، اتخذت أماكن دفاعية، بحثت عن سر النباح المتجانس لمئات كلاب لا تسكت، أرسل النقيب (مالح) منظاره، كلاب واقفة، كلب لصق كلب، وقوف الشجعان في حومة الميدان، خضوع لانضباط مركزي غاية في الحيوانية، تهز الأذناب وفق حركة مروحية، لا تخطأ، يمين. . يسار.. يمين.. يسار، أبواز فاغرة تمتد كماسورات مدافع ترمي

رشـقاً، ألـسن تطلـق مقـذوفات نبـاح مـن غـير فتـور في تجـانس الأصـوات، لا تبـديل في النغمـة، انـضباط عجـز مـدراء مـدارس الابتدائيـة الإتيـان بمثلـه أيـام رفـع (علـم) الـبلاد وترديـد (النـشيد الوطني) للتلاميذ، الضابط بحث عن سـر هـذا التماسـك المنظم، هذا التوحد التام للكلاب، تتبع بوجه جبال عاطلة عـن الخدمـة، ليس فيها ممرات، غابات، لا ثلوج متراكمـة لمنفعـة النـاس، تـرك الكلاب، أخترق بـ (ناظوره) دكنة متحركة، انكشفت، طوابير طيور تحوم حول رقعة نائية، كاد يسحب قوته المسلّحة، لولا رغبته الفرورية في ملاحقة الغرائب، رغب يتحرى عن سر الضجيج الذي حرم النـاس من تكملة نوم يومهم، بعد ليلة حافلة بالرقص والطرب في البيت الصفيحي للـ(غجر)، صرخة شرطي دعته يلتفت، يرسـل منظـاره حيـث يؤشـر بيـده، وجـد غمامـة سـوداء تتحـرك، طيـور غريبـة، تحـوم بـشكل دائـري، كأنهـا أفـلاك هابطـة، مجـرّات خرجت من مساراتها الكونية، تأهب لتطور الحالة، أتخذ مواقـع دفاعية حصينة، خلفهم الناس تواصل الزحف نحو الشرطة، وقفوا على مبعدة أمتار أمينة، خشية حصول معركـة داميـة متوقعـة بـين الشرطة، والجحافل الحيوانية القادمة عبر الجبال، بـدأت الطيـور تقلّص من منطقة طيرانها، تتصادم في محيط دائري لا يسع الأعداد الطائرة، وجد سيادة النقيب نفسه أمام اختبار عـسكري لا يقبـل التأجيـل، يـرفض التفـاهم، لا يجـب أن ينخـدع، يرتـدع، يكفيـه سقوطه مرّة واحدة أمام (الملاّ)، (كبوة ضابط أصيل) عبّر عن ذلك كي يقنع نفسه، قبل أن يرد الاعتبار لهزيمته التي غردت بها ألسن

الناس داخل المنازل، رد الصاع صاعين، من جديد عاد مهيباً لا يتعثر في خطواته، لا ترف جفناه.

نقب عن فكرة خادمة، أنتبه، عيون الشرطة تنصب عليه، تركز عليه أكثر مما تركز على جيش كلاب لا تسكت، وجد نفسه يصرخ، تقدم منه حارسة الشخصي. قال له:

- كم عدد بنادقنا.

- لدينا ثلاثون بندقية فقط صالحة للرمي.

- كم مخزن للعتاد.

- لكل بندقية مخزن واحد.

- كم رصاصة عندنا.

- نضرب مجموع المخازن في العدد ثلاثين.

- يعني ستمائة رصاصة.

صحح الشرطي:

- عدد الرصاصات تسعمائة رصاصة سيدي.

- كم عددهم.

- عدد من سيدي.

- عدد الكلاب.

- سيدي ليس بوسعنا إحصاءهم.

- نحتاج إلى من يجلب لنا عددهم.

- ربما هم أكثر من سبعمائة كلب.

- كيف عرفت ذلك.

- العائلات التي نزحت إلى البلدة كانت سبعمائة عائلة.

- وما دخل هؤلاء بقضيتنا.

- وقعوا على تعهد بتحرير كلابهم التي جلبوها من القرى.

أنتبه لقوة ملاحظة شرطيه، هز رأسه، نقب عن تفاصيل أخرى، توقف عن التفكير. قال:

- يجب أن نضيف أعداد الكلاب السائبة إليها.

- أننا إزاء فيلق كلاب سيدي.

- حسناً.. راقبوا الموقف باحتراس، لنتركهم يتداعوا من النباح، قبل أن ننقض عليهم.

سكت.. الكلاب تنبح، عيونهم تجاهد لدفع الخدر المتخثر في أجسادهم لهول المهمة، ربما شعروا بخطورة الموقف، فجأة وجدت العيون، الكلاب بدأت تستدير نحوهم، متناومين قبل أن يستفزهم صوت التموج الحاصل في النباح،تارة يعلو، تارة ينخفض، عرفوا.. الكلاب رأتهم، بدئوا يوزعون موسيقى النباح تارة عليهم وتارة على الجهة الغامضة، تحفزت أيدي الشرطة للضغط على الزناد، تفتحت عيونهم إلى أقصى مدى ممكن حصره، ساورهم ظن موحد، المعركة باتت وشيكة، أستمر الوضع على ذلك، قبل أن يباغتهم الغروب، عادوا يائسين، كونهم سيواصلون الليل حراسة، قبل أن يأتي يوماً آخر حافلاً بعواقب قد تكون وخيمة، بدأت تتضح علاماتها ساعة بعد ساعة.

* * *

* * *

تم إعدام ستة شباب، أمام بناية البلدة المركزية، ست أخوة، اعترفوا بجرمهم المشهود، قاموا بسرقة (أحجار الكلس) من مستودع فضلات القاطرات الراحلة، لم يدينوا على ما ترتبت من نتائج لاحقة، سببت موت ثلاثة من الذين تناولوا حبوبهم الكلسية، سبعة فقدوا أبصارهم، خمسة فقدوا رجولتهم بصورة أبدية، الأموات، المصابون ألقيت الإدانة على عاتقهم، كونهم خرقوا التعليمات الصادرة، من الجهات الصحية العليا:

- (عدم تناول أي دواء من غير استشارة الطبيب).

رصّوهم متلاصقين، أمام أناس جلبوهم قسراً، بعدما أشاعوا خبراً مغرياً:

- ضرورة التجمهر أمام مبنى إدارة البلدة، بخصوص قضية مركزية تهم أمر البلدة..!!

الكل توقع أن المسألة تخص قضية الكلاب الهادرة، عيون تبحث عن منفذ لتوضيح الرؤية، بدأت الأفواه تختنق، سعال يعلوا، عطسات تتداخل، اخرجوا الرجال الستة، موثوقي الأيدي، تنهال عليهم اللكمات والصفعات، عرفت الناس سبب تجمهرهم، لم يجد أحدهم مهرباً من واقع الحال، الكل داخل شرنقة شرطة

مسلحة، تراشقت البنادق، سقطت الأجساد الستة، سحلوهم بمركبة مسلحة داخل الأزقة، تمزقت أجسادهم إلى قديد لحم مبعثر، شبعت منها قطط البلدة ودجاجاتها، وتم ترحيل عائلاتهم إلى (نقرة النهاية).. !!

* * *

في اليوم الرابع من معاينة تجمعات الحشود الكلابية، سمعت الناس أصوات بنادق، طلقات غير منتظمة، عرفوا. بدأ المعركة التاريخية، صعدوا أسطح المنازل، أشباح جبلية تتموج، داخنة، رمادية، عملاقة، تسرح، تمرح، من غير كلل ولا ملل، دخان بنادق يعلوا، لا أحد يعرف الذي يجري، الخروج ممنوع، المعركة حاسمة، الوقت منتصف الظهيرة، اصطدمت العيون، مركبات الشرطة، تنسحب في قتال تراجعي غير منظم:

- (حرب الشوارع)..!!

هدر صوت جماعي، بنادق تطلق وتتراجع، نباح يقترب ويعلوا، احتاطت الناس لكل طارئ وارد، تسلحت بما وجدت، سكاكين وهراوات، أقنعت نفسها بوصول العدو اللدود إلى عمق البلدة.

في تمام الساعة الثانية ظهراً احتلت البلدة كلاب متوحشة وقذرة، لا تمل من ترديد (نشيدها الحيواني) الخالد.. !!

* * *

خمس مروحيات حامت فوق رؤوس الناس، سابقاً كانت تأتي كل صيف في أزمنة الخير، أيّام الفطرة البشرية عندما كانت الناس تنام وأبواب منازلها مفتوحة، كانت المروحيات المزمجرة تحوم فوق البلدات والمزارع، ترش مبيدات لتقتل حشرات مزعجة تداهم البلدة بشكل ليلي ودائم.

مروحيات بيضاء تئز، تشرخ الصدغين، تبعث صفيراً كونياً لا ينتهي، بدأت تحوم فوق الرؤوس مع الفجر، مسحت فضاء البلدة، هبطت تدريجياً، حتى أصبحت تلامس قمم الأشجار، فجأة ألقت أشياء بشكل لافت للنظر، توقعت الناس:

- الحكومة الجديدة تلقي الهدايا إلى الشعب، ابتهاجاً بميلاد (السيد الرئيس) الميمون.. !!

كلام أنتشر من لسان لأذن، كادوا يكسروا (حظر التجوال)، لولا معارك كلابية بدأت داخل الأزقة، انتشر خبر عبر مكبر الصوت للجامع:

- أيها الناس، لا تلمسوا الأكياس، فيها لحوم مسمومة..!!

استبشرت الناس مبتهجة لحيلة الحكومة الجديدة، استمتعوا بمشاهد واقعية، كلاب رفاق متراصون، يتقاتلون من أجل عزة جنسهم وكرامتهم الحيوانية.

قتلهم جوع كافر، كانوا غزاة عميان، احتلوا البلدة من غير التفكير ومدارسة أمر ما بعد الاحتلال، والتفكير بالتعزيزات التموينية الواجبة للصمود.

جاء الغروب، هبط الليل، نامت الناس، شبعوا من إعادة

مشاهد مسليّة، وحكايات ذي شجون.. !!

* * *

في الصباح..

شرخت منبهات مركبات الشرطة فضاء البلدة، توقظ الناس بشكل جنوني غير مألوف، خرجوا بملابس نومهم إلى الشوارع، وجدوا مئات الجثث نافقة، كلاب فاقدة البصر، رجموها بالحجر في احتفال شعبي كبير، أقامت الناس مهرجانات حرائق كبيرة، أذكت نيران في إطارات مركبات مستهلكة، ألقت الكلاب الميتة طعماً لها، علت رائحة حريفة أفسدت جو البهجة العارمة، تراجعت الجموع فارة من اختناقات التنفس، ليتساقطوا في بيوتهم، تقلب أحشاءهم جائحة بغيضة، جعلتهم يقيئون بشكل متواصل، قبل أن تتدخل المروحيات الخمس تنقذ الموقف، رشّت معطراً للجو، أعاد الروح من جديد للناس.

ظلّت البلدة تلك الليلة ساهرة، استقطبتهم، ضربات موسيقية وطبلية قادمة من البيوت الصفيحية، ساروا أفواجاً تلو أفواج، يتراقصون فرحين لتخلصهم من الجائحة الأبدية للكلاب، والتي اختفت من البلدة، اعتقاد ساد العقول..!!

* * *

لم يقر بال النقيب (مالح)، جلس يتدارس القضية بروية، شيء ما حدث، شيء لا يجب تركه، رغم الهدوء الذي ساد، والفرح الموحد الذي عمّ جرّاءه أهالي البلدة، لم يعد يقلقه خطب (الملاّ)،

كونه اختفى نهائياً من البلدة، وتوقف ضجيج كلاب تم أبادتها بصورة جماعية، الناس لم تعد تنفر من (الفجر)، لم تعد هناك رؤوس مقطوعة تتواجد في الشوارع، توصل إلى قناعة تامة، تلك الرؤوس كانت ضحايا سقطت سهواً تحت شراسة الكلاب، التهمت الأجساد وأتت بالرؤوس تلهوا بها قبل تركها في شوارع البلدة، لم يعد يهمه السبب، كونه لم يجد تفسيراً آخر للقضية، تلك الرؤوس التي أتوا بها.. قالوا:

- وجدنا أرهط كلاب تحرسها.. !!

تفرغ كليّا لمدارسة قضية النباح الكبير، قبل عروجه على وضعه الشخصي، ما حققه من نجاحات وظيفية، هيمنته الكاملة على أهالي البلدة، فشل كل ضابط سبقه في تسلم الملف الأمني لبلدة (جلبلاء) العصيّة، رغم ما حصل جرّاء حملاته المتواصلة، فقدان ناس، عوق آخرين، هجرة عائلات، أجراء أوّل عملية إعدام على الهواء الطلق في البلدة، رغب يتوصل إلى قناعة كاملة، قبل أن يعد تقريره النهائي إلى (حاكم) البلاد والعباد، بعد قرار حزبي تم تحريره:

- واجب على كل مسئول وحدة أدارية رفع تقرير أسبوعي يختصر فيه أعماله والملابسات الحاصلة ضمن نطاق إدارته.

الحاكم يريد (موجز مختصر)، لما حصل من حوادث متزامنة، قبيل أسابيع من إعداد الفرح الوطني الكبير لعيد ميلاده الميمون، من أين أتت الكلاب، كيف تكاتفت، تعايشت معاً، أسئلة تلح، يريد إيضاحات، أجوبة مقنعة إلى حد ما.

الكلاب كما هو سائد، في كل بلدان الشرق الأوسط، البلدان المتخلفة عمرانياً وثقافياً، تتقاتل بلا رحمة، بلا سبب تتقاتل، كيف توصلت هذه الكلاب، إلى وئام شامل، توافق عادل، ائتلاف موحد، في عالم بلا قانون، مصالحة كلبية، لابد جهة ما، تقوم بتدريبها، تحقنها بأدوات الرفض، تعلمها صناعة الفوضى، تمهد لها سبل تعكير رؤوس الأنظمة الجديدة.

تأخذه الصفنات بعيداً، يتقهقر ليبدأ دورة أخرى من البحث الخائب في مواضيع لا تنتهي، صرف أكثر من خمس ليالي وست نهارات ساهراً يفكر، زار ميدانياً مواقع المزابل الهائلة، مرابض اتخذتها الكلاب مستعمرة صارمة الاجتياز، قبل أن يأمر شرطته في هجوم مباغت، لم يكلفه الهجوم، سوى صرف كل الإطلاقات التي كانت بحوزة شرطته، الأمر الذي دعاه أن يطلب إمدادات حربية من الجهات العليا، بعثت (الحكومة المركزية) المروحيات الخمس، العائدة لوزارة الزراعة، المروحيات الحربية في مهمة حراسة بيت (الحاكم) ليل نهار، تحسباً لرد فعل مباغت من قبل عشيرة (الحاكم) المنحى من منصبه، بداعي لوثة عقلية باغتته جرّاء كبر سنّه.

تم تطهير البلدة من كل الجثث المبعثرة، وتبخير الفضاء بماء العطر، سهل هذا الأمر من مهمة كسب ود الناس بعدما كانوا خصوم، وجدوه (الرجل الملائم) لمرحلة التغيير السياسي في البلاد، رجل رغم (لا رحمته) ضرورة مرحلة عصيبة، يعمل بهمة ونشاط، غايته المثلى، فرض القانون بكل تشعباته في البلدة، رغم أنه أبدى

قـوة اسـتثنائية للمحافظـة علـى أرواح النـاس، ضـد العـابثين والمستغلين والحيوانات الانتحارية:

- إطاعته واجبة على كل ذكر وأنثى.

كلام ظلّ يردده (الملاّ) الجديد في خطبه على مضض، تم الاتفاق عليه.. !!

* * *

جلس يكتب تقريره النهائي، مجمل نشاطاته، أعماله المنجزة، ما جرى من حوادث خارقة في ظل سيادته.

جاءه خبر مفاجئ، كلب ينبح في مكان ما، ملسوعاً قام من وراء طاولته، وقف يسمع الكلام مرة أخرى:

- سيدي كلب آخر ينبح.

- كلب واحد فقط.

- رصدنا نباحه، سيدي كلب واحد فقط.

أنتبه لصيغة كلام شرطيه.. صاح:

- ياكلب لا تجمع بين سيدك والكلب في صياغة كلامك.

هيأ شرطته، أنطلق، شق جموع ناس واقفين على طريق الشارع الرئيس للبلدة، خرجوا يتحرون صدق الشائعة، بدأ التصفيق الجماعي، علت الهتافات الشعبية، تلك الوصلة التشجيعية زادت من معنوياته، وصل أماكن المزابل، بعدما أزيحت بحملة شعبية كبيرة تحت أمرته، شارك فيها كل شباب البلدة، وقف يصغي، نباح مبحوح يأتي من مكان ما.. قال لحارسه الشخصي:

- من يأتيني بخبره له مكافأة.. !!

انتشر خبر المكافأة بين الجموع المحتشدة، اندفعت مواكب الشباب صوب الجبال، حملوا معهم هراوات وسكاكين، طمعاً بمكافأة غير معلنة، بعد نصف نهار وصله خبر:

- سيدي كلب واقف بباب كهف.

في الصباح التالي قاد حملته الشرطوية باتجاه مكان النباح، وصلوا الوادي الذي يفصل الجبل عن البلدة، أخترق بـ (ناظوره) عتمة الغبار، وجد كهفاً ببابه كلب ينبح، خشى أن يكون الكلب محتالاً، كمين حيواني غاية في المكر، توقع الكهف يخبأ فرقة كلاب متحمسة لرد اعتبارها، تريد أن تنتقم لكرامتها الكلبية، تجحفلت وتهامست وتفاهمت حول تطبيق خطة حيوانية مباغتة ومحكمة، احتلال مدروس للبلدة هذه المرّة.

صاح على حارسه الشخصي، الذي جاء مهرولاً:

- كم رصاصة في مخازن البنادق.

- لا رصاصة لدينا سيدي.

- كيييييف.

- نفد العتاد في معركتنا السابقة.

- ما العمل لو دهمتنا فرقة كلاب كاملة.

- نلقي لحم مسموم بباب الكهف وننسحب.

- لا..لن أنهزم من هذه المعركة من غير مجابهة حقيقية هذه المرة.

- سيدي، ليتقدم منّا رعيل نحو الكهف، بالحراب يواجهون الاحتمالات الواردة.

- فكرة صائبة قد تفلح، قم بقيادة الرعيل.

- أأأأأأنا.. ومن سيحرسك سيدي.

- حسناً.. مر أحدهم بقيادة الرعيل.

راقب الرعيل المتعثر، يمشون شاهرين بنادق خالية، وصلوا الكهف، رأى كيف قام الرعيل بتمزيق الكلب الذي لم يقاوم، رآهم يقتحمون الكهف ببسالة نادرة، بعد تصريف نبضات قلب متسارع ونثر شهيق صائت، رأى الرعيل يخرج، يحملون شيئاً عجز (الناظور) بيانه، أحدهم راح يركض صوبه، أنتظر نصف ساعة، قبل أن يتهالك الشرطي الراكض بين أقدامه:

ـــ سسســـسدي وجـــدناه.. نـــاه.. نـــاه.. فيفيفيفـــي الكككككهفهفهففف.. !!

* * *

تلك الليلة..

سهر الجميع في جلسات شعبية، أنعش ليلهم الخبر الكبير، وكانت الألسن تصوغ نهايات متوقعة لختم القضية المركزية في البلدة بشمع الخلود، بعضهم توقع، ستكون الدعوة إجبارية في الغد، سيشيعون بأعينهم الرجل الذي احترموه لزمن طويل، سيشدون وثاقه، تتهال عليه ما لدى الشرطة من رصاص، ستسحله مركبة النقيب (مالح) في الأزقة، بعضهم توقع، أن السيد النقيب، سيقوم بنفسه تصويب مسدسه إلى رأسه، مستبدلاً طلقة الرحمة بطلقة البداية، سيقوم بقيادة المركبة في الشوارع والأزقة، ليبعثر

لحمه على كل شبر أرض.

تضاربت الأنباء، تناثرت التوقعات، الليل ينقرض، الكلام يتناسل، والصباح كسلحفاة يقترب بتثاقل، لم يشعر أحدهم برغبة في النوم.

مع التباشير الأولى للفجر، خرجت الجموع تنشد تطورات القضية المحورية، وقفوا أمام (البناية المركزية) للبلدة، رأى النقيب (مالح)، الحشود تتنامى من غير سبب، تقف، تستفهم بعض رجال الشرطة، رصد جيداً مقايضات علنية لدى بعضهم، لمح، تلتقط أيدي شرطته (السجائر مقابل الكلام)، لم يثر عصبيته، فهو مثلهم لم تصل رواتبهم منذ شهرين، نتيجة وجود اختلاس كبير في الخزينة المركزية للبلاد، أشيع، أحد المقربين من (الحاكم) غسل أموال البلاد وهرب، التأكيد على تلك القصّة، جاء من قبل إذاعات العدو، إذاعة البلاد أعلنت، مراراً وتكراراً:

- (البنك المركزي) للبلاد تعرض لحريق هائل جرّاء تماس كهربائي غير متعمد، أحدث تلفاً كبيراً في الأموال العامة. . !!

إذاعات العدو، تقول الحقيقة منقولة من جواسيس مندسين في نظام الحكم الجديد، الحكومة هي فعلت الحريق كي تمحي الأثر، تعرف، أموال البلاد صارت في بنوك العالم، لا يجوز فضح ذلك المقرّب جداً لمهندس (الثورة اللا.. دموية)، صهره المدلل، أبن عمّه تحديداً.

لم يجد النقيب (مالح) عدوانية تجاه ما يرى، قبل الرشا

الحاصلة أمامه حتى أشعار آخر، تراجع إلى طاولته، ضغط زر الجرس، جاءه الحارس الشخصي فوراً:

- لا أريد تجمهر الناس بهذه الصورة.

- سيدي. الناس تتوقع عميلة إعدام اليوم.

شعر النقيب باقشعرار يسري في عروقه، قام من وراء طاولته، تقدم من حارسه.. صاح:

- إعداااام من..!!

- الملاّ (صالح).

- تريد أن تقلب الدنيا على رأس الحكومة.

عاد النقيب، جلس وراء طاولته.. صاح:

- فرقوهم فوراً.

تفرق الجميع، رغبة ضارية تدفعهم لمعرفة مصير (الملاّ) بعد اختفاء دام شهرين، ظنّ الجميع (الملاّ) توارى كلياً عن البلدة، جرّاء سمعته بعدما تلوثت بـ(مسحوق الزنا)، عادت تلك الخطبة المشهودة إلى الأذهان، يوم نكر القضية، رابطاً قصته بقصة أحد أنبياء الله.

عادت الألسن تبحث عن تفاصيل ذات صلة، البعض راهن بما يملك من مال، وراء القضية كيد ستكشفه الأيام، بعضهم لم يذهب خارج حدود الرغبة.. قالوا:

- الملاّ إنسان، كل إنسان يزل في أوقات معينة، أبواب التوبة مفتوحة ما لم يغرغر المرء.. !!

* * *

خبر تواجده مع أكياس تمر(زهدي) وخبز يابس داخل الكهف، جاء مع نباح كلب أعمى، حين مزقوا جسد الكلب، سمعوا تمتمات بشرية وأنين، وجدوه مصاباً بمرض غير مفهوم، نقلوه وسط حشد جماهيري يتدافع، احتشدوا، رغبة واحدة جمعتهم، رؤية وقائع معركة جديدة، عاد الموكب من رحلة الهجوم، يحملون جسداً متهالكاً، عرفوه من مسوحه، غمغمت الأفواه، وجدت الصمت أسلم في ظل ظروف راهنة ملغومة، أدخلوا (الملاّ) إلى بناية البلدة المركزية، عاد الناس، سهروا وتناقشوا الحكاية من كل الجوانب ممكنة التأويل، تجمعت توقعاتهم في بؤرة واحدة، مكان مرعب، منصة كونكريتية، في يوم قريب جداً، أعدم عليه ستة أخوة.. !!

* * *

تأجل الإعدام المتوقع لأسبوع كامل، الكل ينتظر بفارغ الصبر، لا شيء يصل، صار الخبر يقايض بالذهب، لا أحد يملك قطعة ذهب، بلدة لا تعيش إلاّ على اصطياد أسماك النهر، بيع الحطب اليابس، العمل لنقل البضائع للتجار القادمين من بلدات بعيدة، عمل تنانير طينية مربحة أيضاً، فلاحة جرف النهر بمحاصيل صيفية، بيع أصواف أغنام،نفر قليل يمتلك راتباً تقاعدياً يسيراً، كان قبل زمن ليس ببعيد يعمل عامل سكك حديد، أو نائب عريف متقاعد، كل خبر ليس بوسعه أن يطول، مهما كانت صلادة الزنزانة الحاضنة له، وصل الناس المتلهفين، المراقبين عن

كثب كل شاردة وواردة في البلدة، وجدوا الخبر مفاجأة، ربما تلفيق لامتصاص الغضب العارم المتفاعل في رأس كل فرد، مذ سقط (الملاّ) بزلة لسان:

- (الملاّ) مصاب بمرض غامض خبيث.. !!

خبر جعل أفواه تتساءل، عيون تبحث عن مصداقية ما يجري، ربما (الملاّ) فعل فعلته، المرض الخبيث، كما هو شائع، لا يأتي إلاّ من طريق مواقعات خبيثة مع نسوة خبيثات، توقعت الألسن أنه عقاب فضائحي، جرّاء ما فعل داخل الزنزانة مع تلك النسوة القذرات.. !!



* * *

عجز طبيب المشفى تشخيص المرض، أمر بنقله من الزنزانة وحجره في ردهة انفرادية داخل المشفى، تحت حراسة حديدية، الخوف تنامى، توعدات ناس تصاعدت علناً، مع تنامي دعوات الانتقام، كغسل للعار الذي لحق بهم.

كلمة واحدة من لسان عابث كانت تقود أنثى في البلدة إلى حتفها بسكين أو بضربة ساطور، فالبلدة منذ عهد قديم تعودت على الحماسة الزائدة في التعامل مع القضايا الأخلاقية، لذلك وجدوا أنفسهم غير قادرين على تحمل وزر القضية، أتحد قرارهم على إزاحة ما أصابهم في صميم يقينهم كي يتفرغوا إلى حياتهم التالية.

التوقعات لم تكن في محلها، مجرد أقاويل غير مسنودة تحررها

أفواه الشرطة، ربما لغاية لا يعلمها أحد تدخل ضمن القضايا السرية عند البوليس، مجرد شكوك تحوم سراً حول الحدث الجديد، ناس البلدة لا تجتمع على رأي واحد، لا تتفق على أقاويل غير مقترنة بأدلة ناسفة، ما زال هناك كثير ممن يكتم يقينه يذهب على أن القضية لم تكن سوى عبارة عن فبركة شرطوية لغاية لابد أن تظهر، أولئك الذين عرفوا معدن (الملاّ)، قوّة يقينه ونزاهته، واصلوا حربهم السريّة لتفنيد مزاعم المؤسسة الأمنية للبلدة، عبر قصاصات ورق تلقى ليلاً بطريقة غاية في البراعة أمام المنازل وداخل السوق، من تلك الأوراق رسم النقيب (مالح) هالة الرعب المحيق به، قرر أن تكون الحراسة حول المشفى بكامل قدرات دائرته.

الناس بدءوا يتناسون القضية.. يوم سمعوا:

- (الملاّ) ميت سريرياً، مسألة لفظ أنفاسه الأخيرة، سواء كانت آثمة أو بريئة، مجرد وقت مستقطع.

الشائعات في (جلبلاء) مثل النار تخمد وتتأجج، أعادت سيرة (الملاّ) إلى سطح الذهن، منهم من جهر:

- الملاّ (صالح) دخل الغار ليستغفر ربّه، كي يمحي خطيئته الكبرى.

منهم من وجد:

- دخوله الكهف، محاولة نوم قرناً كاملاً كي يعود ويجد غريمه النقيب (مالح) ميتاً.

الدليل القاطع على ذلك، كان الكلب المرافق له، الكلب

الذي مزقوه بالحراب ولم يحرك ساكناً سوى التوسل والأنين، فتبين أنه كلب أعمى.

في خضم التضاربات اللسانية بين الناس، تفاجئوا بخبر غير سار.. النقيب أعلن:

- فتح تحقيق كامل حول القضية.

تم جر أصحاب الأفران والمخابز وأصحاب بيع التمور، بعد ضرب مبرح، صرخاتهم انطلقت ليلاً لتفزع أحشاء البلدة، أعترف صاحب مخبز:

- (الملاّ) جاءني ذات صبيحة قبل اختفائه، أشترى كميّات كبيرة من أقرص الخبز، توقعت أن الموضوع لا يتعدى حدود أعمال خيرية جبل عليها منذ سنوات.

صاحب متجر تمور اعترف:

- بعت (الملاّ) أكياس تمور، خجلت سؤاله عن سبب شرائه كميات هائلة، تمر (زهدي) قديم مدوّد.

تم سجن المعترفون بناء على قرار حزبي غير قابل للنقاش، كونهم خالفوا الأوامر المركزية الجديدة، والتي تقتضي. . ضرورة أخبار رجال السلطة بكل عمل لافت للنظر ومخالف للأعراف السائدة.. !!

* * *

الربيع..

يختلف عن ربيعات المواسم السابقة، أرض حافلة بالحشائش، ورود طبيعية، داهمت الزرازير وطيور الغداف البلدة بشكل جنوني غير مسبوق، صدمت تلك الكائنات الشتوية، إزالة أهم مصادر

تغذيتها، مستعمرة مزابل الجيش، حامت في الفضاء صارخة وربما لاعنة، تنقض كالبرق على النمل المجنح، بعدما تكاثر بشكل غير وارد من قبل.

استبشرت الناس خيراً، وصول الغدّاف والزرازير بهذه الوفرة إعلان واضح وصريح لرزق وفير قادم:

- الزرازير يتبعها التجّار.

كلام متواتر يعرفه الجميع، يعرفون الربيع يعني توافد وفود التجّار من أقاصي بعيدة، يأتون ويشترون أسماك مجففة، أخشاب، تنانير طينية، أصواف أغنام، فستق الحقل، بصل يابس، ماش، لوبيا، تهيأ كل فرد للحصول على فرصة عمل.

بدأت القوافل تلج البلدة من الشمال والجنوب والشرق، فقط الجهة الغربية لا يأتي منها أحد، جهة النهر، راحت الناس تتدفع لاستقبالهم، في غمرة الفرح شاع خبر اعتبروه كبيراً:

- (أبو سمرة) قدم مع التجّار.

بدأت الرؤوس تنفض عن نفسها غبار السنوات، تزيل ركام الحوادث، حتى أولئك الذين لم يروه استعانوا بحكايات سمعوها، رسموا من خلالها ملامح وجهه، بحثوا عن تفاصيل كاملة للخبر، ياترى هل ما يسمعون مزحة سياسية أم حقيقة تاريخية، نقاشات استثمرت، كونت الهيكل المتوقع لرجل قفز إلى سطح الذاكرة في وقت حرج، آتياً من ماضي بعيد، رجل بعضهم يعرفه، بعضهم سمع عنه ما يكفي من حكايات لتهويله، غاب منذ زمن بعيد، كلّهم يعرفون قصة غيّابه.

في اليوم التالي..

عيون تخترق الجموع البشرية المتزاحمة، تبحث عن (أبو سمرة)، بعضهم لم يرغب تلبية نداءات التجّار، راح يفتش عن ملامح رجل قديم، رغم طول غيّابه، ما زالت ملامحه حاضرة في الأذهان، عرفه الناس، صيّاد ماهر للخنازير، شهرته بقت رغم غيّابه، رغم ما جرى من كوارث طبيعية، حوادث بشرية متعاقبة في البلدة، غاب في يوم مشهود، شاعت عنه أخبار متضاربة، بعضهم توقع:

- الخنازير فتكت به في تلك الواقعة المشهودة.. !!

* * *

تقول الواقعة..

ذات ليلة، استيقظت البلدة منتصف الليل تحديداً على هدير (قباع) داوي، (أبو سمرة) خرج من المنزل في حفلة اصطياد، وصفوه بالتاريخية، لأن الخنازير اختفت نهائياً عن نهر البلدة، هناك من أقسم بأغلظ الأيمان:

- رأيت جحافل خنازير ناجية من المذبحة، تمشي، رتل طويل يائس، تحاذي النهر باتجاه الشمال.. !!

في فجر تلك الليلة لم يعد (أبو سمرة) للمنزل، وجدوا تسعة خنازير منحورة أمام بيته، لم يتوصل أحدهم إلى سبب تركه الخنازير، وغيّابه المفاجئ، قصة موته الأقرب إلى ختم حياته بشمع الشهرة.. توقع شاع:

ـ الخنازير فتكت به، لحظة عاد إليهم ليرجع بالخنزير العاشر..!!

كل ليلة يخرج، يصطاد خنازير تأتي إلى حافة النهر، يبيع لحومها إلى (انكريز) ينصبون سكك حديد عبر البلدة، لجلب قاطرة بخارية تشبه ثعبان عملاق، اغتنى الرجل كثيراً، لم يعر نداءات ولا تحذيرات بعض الرجال أذناً صاغية.. يوم قيل له:

- مال حرام، الخنزير حرام كما جاء في الشرع.

(أبو سمرة) تحول من إنسان يصلي أوقاته الخمسة، إلى زنديق كما وصفوه حين ترك الصلاة، جزء من تقريعات متواصلة، كلام معاد، نفر منهم وترك الصلاة.

كبسوه ذات مرّة على حافة النهر يشرب (منكر)، أعترف بالواقعة، أحد (الأجانب) قايض خنزيراً صغيراً ببطل (منكر) :

- أردت تجريب مذاقه، خلته عصير عنب أصفر، ما أن كرعته غرقت في سعادة كونية لا توصف.. !!

* * *

اختفى (أبو سمرة) في صبيحة دامية، وجدت الناس عشرات الخنازير جريحة، انهالت عليها رجماً بالحجر، قبل حرقها، في ظهيرة نفس اليوم، عرفت الناس، (أبو سمرة) لم يعد إلى بيته، رأوا امرأته تجوب الأزقة بحثاً عنه، مضت الأيام، فتر الخبر، اقتنعت زوجته بما تردده الناس من نهاية كانت مقنعة بالنسبة لها، رغم تواتر خبر ضعيف، فيه لمعان إقناع، لم يعرف أحد مصدره:

- (أبو سمرة) غرق في النهر، عندما رجع لا لجلب الخنزير العاشر كما شاع، بل لإزاحة دماء الخنازير التسعة من ملابسه.. !!

دخل (أبو سمرة) البيوت الصفيحية، جلس على كرسي في الصف الأمامي، متهالكاً، ضعيف البصر، ثقيل السمع، يحاول يرى، الفتيات الغجريات يرقصن، الرجل النحيف يتقافز كالبهلوان على إيقاعات الطبول المرعشة، بين لحظة وأخرى، تتقدم واحدة من الغجريات، تتلوى أمامه، تقعي، تقفز، تستدير، تهز مؤخرة هائلة، (أبو سمرة) يقرّب عينيه، يمتع نظره، يقتنص شيئاً من عالم جديد في بلدته القديمة، عالم سعيد على طول الخط، كما ساده الاعتقاد.. !!

* * *

كثيرون عرفوه، لحظة سقطت عيون باحثة عنه، وجدوه، يتعكز عكاز، يمشي ببطء، لا يعير نداء أحدهم اهتماماً، كأنه يتغاضى عن كل شيء، سار في السوق، مثل كلب بوليسي يطارد لصاً عبر رائحته، تجول بين الأزقة، حشد ناس يتبعه، لا يلتفت، لا يهمه ما يجري وراءه، كأنه يريد أن يسترجع أيام بطولاته الفردية، يريد زيارة أماكن جندل فيها الخنازير في زمان بعيد، تقدم منه رجال، رفض تلبية دعوة أحدهم، ينادونه، يتناكرهم، يمشي، الناس تجهل، (أبو سمرة) ضعيف البصر، أشبه بالفاقد للرؤية، ثقيل السمع، أشبه بالأطرش، قضى النهار، يمشي، يجلس، عند بداية الليل نادته دبكات ترعش بدنه، موسيقى صادحة، تأتي من بيوت صفيحية تسكن قلب البلدة.

مشى نحو ذلك الضوء الباهر كحصان أصيل..!!

بعض الناس تراجعت عن يقينها، تصورته كما شاع الخبر:

ـ شبيه (أبو سمرة).

في كل شيء يشبه، في مشيته، في نظراته، لكن الصورة التي ظلّت مطبوعة في ذاكرة أهالي (جلبلاء) احتفظت بلحظة شبابية، والذاكرة الجمعية ظلت تستحضر تلك اللحظة، ناسية أن العمر مثل النار قدماً يمضيان نحو الرماد.

رجل حفر بطولات خارقة في ذاكرة الناس، (شبيه) مسخ غير ناطق، لذلك أهملوه.

(أبو سمرة) واصل الليل متخثراً على كرسيه، بعد انتهاء الاحتفال الليلي الدائم، انسحبت الجموع البشرية، وحده متوحداً في صمته يجلس، لا يريد إتباع الناس، انتبهت (غجرية)، وجود جسد جالس، تقدمت منه، أرادت تصريفه كما تصرف مواكب الرجال، وجدت يدين تمسكانها، أرادت تصيح، لكنها تراجعت لحظة أنهار الرجل أمامها، عرفت أنه عليل، شمّت فمه، لم تجده محتسياً للـ (منكر)، رفعته وأخذته إلى مهجعها، طرحته على فراش بسيط، صيد نادر في ليلة متعبة، كونه كما تراءى لها تاجر غالي الثمن.

(أبو سمرة) ظلّ يحلق فيها، عيناه متحجرتان، صامت كأخرس، لا يبدي عدوانية أو شراسة سريرية، وجدته يستحق العناية، لذلك استبقته شريك فراش.. !!

* * *

في صبيحة اليوم التالي، تناقلت الأفواه خبراً غير سار:

- لمحت جسداً مرمياً على حافة الوادي، اقتربت منه، عرفته (أبو سمرة).

كلام شاب خرج باكراً إلى عمله، رأى ما سرد، هرع عائداً، تلقفت الآذان الخبر، حشود بشرية اندفعت، متاعسة كانت لذلك كان الجميع يتعثر ويتصادم، وقفوا حول جثة (أبو سمرة) وجدوه يرتدي نفس ملابسه، عكازه ما زالت بين قبضتيه، ملك يريد تخليد موته بلقطة نادرة، تراجعت العقول من تصوراتهم نحو شخصيته (شبيه) محض، بعدما تأكدوا منه، رأوا ثوبه مرتفعاً كاشفاً عن فخذيه، وجدوا آثار أنياب خنزير ذات يوم باغته على حافة النهر..

يومها حلف:

- كنت أتفوط، شعرت بإبر ساخنة تنغرز في فخذي، دافعت عن نفسي ببسالة لم أتصورها.

في ذلك اليوم شاع خبر مازح:

- (أبو سمرة)كان يواقع(خنزيرة)عنوة، غرزت أنيابها في فخذيه.

حلف بما فيه الكفاية، جاب الأزقة حاملاً الخنزير الذي كل من سحله، قبل أن يضعه أمام البيت.. !!

* * *

تلقفت الشرطة خبر وجود جثة تاجر مرمي على حافة الوادي، جاءت مسرعة، أبعدت الناس، حملت الجثة وأخذته إلى النقيب (مالح)..!!

توقعت البلدة جائحة تحقيقات جديدة، رؤوس تدور حول نفسها، تتجه نحو البيوت الصفيحية، أقسم الكثير:

- رأيناه دخل في الليل إلى بيت (الغجر) ولم يخرج مع الخارجين.

لم يعترف أحد بتواجده بين الرجال لحظة دلقتهم المملكة الصفيحية، حتى صاحب الفندق أقسم أنه لم يره بين العائدين، فعرف بغريزته أنه كان في ضيافة (غجرية).

رأوه جالساً في الصف الأمامي، توقعوا حادثة (قتل) متعمد، بحثت الرؤوس عن طرف مستفيد من قتله، رجل غريب لم يترك سوى زوجة كثيرة التذمر، بقت سنوات تنتظره قبل أن ترحل برفقة رجل (عجم) يتاجر بالصوف، حدث ذلك قبل سنوات طويلة، ربما المال وحده كان السبب، جواب بدا مقنعاً لهم.

عادت قضية (الشبيه) إلى الأذهان، رغم أن البعض قد رأى آثار تلك الأنياب في فخذيه، تأكيدات أخرى تعلن أنّ زوجته أحياناً كانت تعضّه بأسنانها، حين يرفض النهوض من نومه الطويل في النهارات، بعد عودته من رحلة الليل، رازح الجسد بعرق بغيض، وملابسه تنز بدم الخنازير..!!

* * *

الرهبة حاضرة في كل بيت، اليقين شامل، النقيب (مالح) سيتدخل فوراً، هو مسئول أمن البلدة، عن كل كبيرة وصغيرة، والمقتول تاجر سيدفع بقية التجّار بمغادرة البلدة، تحسباً لهجمات منظمة جديدة، لابد أن النقيب قد أعدّ تأويلات كثيرة للقضية،

ربما أجدرها، فئة سريّة مقلقة، تستخدم هذه الحرب الجديدة لإحداث الفوضى في البلدة، إستراتيجية متطورة للحروب السريّة لأصحاب اليقين السلفي، لابد من وجود أجندة من الجوار ممن ينتفع من خلال الفوضى، يسهر ويبذخ نفيس المال من أجل ذلك، سيدفع هذا الأمر بالتجّار الإقلاع نهائياً عن المتاجرة مع أهالي (جلبلاء)، سيسبب خسارات مادية متلاحقة، لكن التوقعات السريعة من غير مدارسات ذهنية، لابد أن تتبخر في زمن يساوي زمن ولادتها، مضت تلك التوقعات أدراج الريح، لأن النقيب سكت، لم يرغب فتح سجلات أخر، بحثاً عن جناة أشباح.

التأكيد الرسمي للموت جاء من لدن طبيب البلدة، مرره النقيب سريعاً إلى أذهان الناس خشية الفتنة.. عرف الناس:

- (أبو سمرة) مات بسكتة قلبية.. !!



دفن (أبو سمرة) في المقبرة القديمة للبلدة، رجال البلدية قاموا بمراسيم دفنه من غير جعجعة، بضع أنفار ساروا مع الجنازة بدافع الفضول، (ملا) الجامع الجديد رفض مرافقة الموكب، رفض الصلاة عليه.. قال:

- أدفنوه بلا تلقين، لا يجوز الصلاة على ميّت سكران..!!

* * *

حكاياته شبه الأسطورية دغدغت أذهان الناس، بدئوا بمراجعة أوراق حياته، نقبوا عن تفاصيل متناثرة، سواء المسموعة

وغير المسموعة، كل حكاية هو مصدرها صارت بفلوس، وصارت الذاكرات تفتح أنفاق الماضي بحثاً عن مشاهد يلبسونها حلّة كلمات جديدة تنسجم مع راهن الحدث الكبير، تشكلت في أذهانهم سيرة ميسرة متجانسة عنه.. تبين لهم:

- (أبو سمرة) لم يكن من أهالي البلدة القدماء، يوم مجيئه فتى أسمر كان يرافق تاجر صوف، تركه التاجر بعدما خسر كل ماله بسبب امرأة لعوب.

قيل عن تلك المرأة:

- تركت زوجها الفقير ورافقته.

تشكلت الحكاية، بشكل موجز، مختصر مفيد، أنها أي (المرأة) تنازلت عن زوجها، كذلك التاجر تنازل عن غلامه، عادت إلى بعض الأذهان، تحديداً من بقي على قيد الحياة، كيف أعلن ذلك الرجل الفقير طلاقه الغيّابي من امرأته ناكرة الجميل.

وقف منتصف السوق. . كدلال صاح:

- زوجتي عاصية، عديمة الحياء والوفاء، أشهدوا ياناس، أنّي مطلقها بالثلاث، وأنّي سأتبنى هذا الغلام المسكين، له ما أملك يوم موتي.

أخذه إلى بيته المتواضع، أعتبره هبة آتية من سماء الرحمة، تعويضاً عن خسارة كبيرة، مات الرجل الفقير، بقى الغلام الأسمر يواصل العمل، تارة حمّال داخل السوق، طوراً يحرس بضائع التجّار، أشتد عوده، تآلف مع الناس، جرأته وسمرته، لعبتا دوراً لإيجاد عمل مريح مع بقايا (أجانب) تعيش في الجانب الشمالي

للبلدة، ناس تعزو سر توجهه لصيد الخنازير، طبيعة عمله مع تلك الفئة الأجنبية، كونهم منغلقون عن الناس، لا أحد يصل إلى منطقتهم، تأتيهم احتياجاتهم عبر مركبات خاصة، عندما تهب الرياح الشمالية تسكر البلدة كلها، لأن الريح تنتشر مخثرة بالمشروب الذي يصنعونه ويحتسونه.

صار(أبو سمرة) صائد ماهر للخنازير، تزوج فتاة فقيرة، فيما بعد تنمرت عليه، جيرانه الأقدمون ما زالوا يتذكرون عراكهما الدائم، حكايات مسلية كانت تحصل ليل نهار بينهما، منها ما ضاع تفاصيلها، منها ما تزال تحتفظ بكامل حرارتها، ترددها النسوة كرباط كلام.

من بين تلك القصص التي ظلّت ماثلة، تحضر كلما شدخ رأس واحد، يوم رجوع (أبو سمرة) مشدود الرأس، سرد كيف داهمه رعيل خنازير متوحشة، كونها كانت في لحظة تزاوج، تمكن بحربته بقر بطون خمسة منها، قبل أن يشعر بمطرقة تنهال على أم رأسه، وكان من عادته، أنّه يربط الخنازير المنحورة بحبل، يقوم بسحلها ماراً بسوق البلدة نحو البيت.

في تلك الواقعة، وجد خنزيراً نائماً فوقه.. قال عنه:

ـ لم تكن السكين بيدي، طارت في الهواء، تلاويت مع الخنزير، تمكنت من عزل فكيه بقبضتي.

ناس رأوا ذلك الخنزير مفكوك الفكين، بعضهم تراجع عن يقينه، مرروا كلاماً أقتنع به الكثير:

ـ لا تصدقوه،(أبو سمرة) فك فكي الخنزير بسكينه، كي

يتباهى بقوة عضلاته بيننا.

كان أبو (سمرة) يسكت، لم يرغب التعليق على ما يسمع من وشاة يلازمونه.

استمرت الحكايات بين الناس، استعرضوا مجد أيام (أبو سمرة) لسبعة أيام متتالية، قبل أن يهل اليوم الحزين، يوم رحيل التجّار عن البلدة.. !!

* * *

* * *

بعد يومين من رحيل التجّار، شاع خبر جديد في البلدة:

- الملاّ (صالح) يحتاج إلى بطل دم.

الدم الموجود في ثلاجات المشفى وجده الطبيب، لا يتطابق مع فصيلة دمه.. قيل أيضاً:

- دمه نادر.

ناس قالت:

- دمه ديني، ودمنا دنيوي.

ساءت أحواله، وجد الطبيب نفسه في حوار مع النقيب (مالح):

- دمك يليق به.

- ماااااااذا.. !!

- نسبة الفساد في دمك في ازدياد دائم.

- لكن.. كيف.

- قضية إنسانية حضرة النقيب.

- كيف عرفت دمي يطابق دمه.

- تذكرت دمك النادر.

- أضخ من دمي في جسد عدوي.

- حالة إنسانية طارئة، في الحروب تنهار الحواجز بين الطبقات البشرية.

- في الحروب.

- (صلاح الدين الأيوبي) أخترق معسكر (الصليبين) ليعالج ملكهم العدو.

وقف النقيب (مالح)مكتوف الحول، لا يعرف كيف يتصرف، أسرّ في نفسه:

- ليت أعرف لم أضعف أمام هذا الكائن اللدود.

كان يعني الملاّ (صالح)، سحب نفساً عميقاً، زفر.. قال:

- حسناً. ليكن هذا الأمر سراً.

تبرع النقيب قنينة دم، حقن جسد (الملاّ) به، تعافى قليلاً، بينما الناس كانت تتهامس سراً حول مرض الملاّ (صالح)، مدى إمكانية إسعافه، مدى شرعية الوقوف معه في محنته، من باب جمع الحسناتز

وصل نبأ تعافيه من الجائحة التي طرحته إلى الناس، أعيد ثانية إلى سجنه، زاره النقيب، وقف أمامه، وجده خاشعاً يواصل صلاته.

. قال من وراءه:

- للصلاة أوقات.. !!

سلّم الملاّ (صالح)،ألتفت إليه، تلاقت أربعة عيون مليئة بحقد متواصل، جلس النقيب على كرسي جلبه حارسه، أشار إليه أن يخرج، بحث عن كلمات مناسبة يبدأ بها حواره.. سبقه الملاّ (صالح):

- ليس لديك ما تقوله.

- أريد شيئاً ينهي هذا التوتر.

- ليس بيننا سوى رب السموات السبع.

- أنت تراوغ كي تواصل معركتك.

- أنا أحارب شياطين الأنس والجن.

- ليس في البلدة شياطين.

- قل ليس في البلدة مؤمنين.

- الجامع مزدحم بهم.

- في الليل تزدحم بهم البيوت الصفيحية للفجر.

- لك دينك، ولهم دينهم.

- لنوقف هذا النقاش.

- ما حكاية الكهف وكلبك.

- أردت الهروب من عالم ملتبس بالأبالسة.

- ولم لم تبلغ السلطة.

- أنت تعرف في أي جائحة أوقعتموني.

- حكاية (بائعات اللبن).. (قاطعه الملاّ) .

- هناك من دبر مكيدة لي.

قام النقيب، ذرع غرفة السجن، عاد ووقف أمامه من جديد.. .

قال:

- أنا أريد أخراجك من هنا.

- أنت وضعتني في مأزق.. ألله هو الذي سيخرجني.

- بإمكاني أن أستبقيك.

- ذلك بأمر منه أيضاً.

- حسناً.. أخرج، لا يحق لك إمامة المصلين.

- كل شيء في كتاب.. !!

* * *

خرج (الملاّ) من الزنزانة، توجه إلى بيته الطيني لصق الجامع، وجده مسكوناً من قبل الـ(ملا) جديد، تذكر كلام النقيب، فهو بالفعل قام بخلعه من منصبه الإيماني، وقف لا يدري أين يتجه، رغب العودة إلى كهفه، هناك بإمكانه أن يختلي إلى ما يشاء الله، يتعبد عسى ربّه أن يجد له مخرجاً، في خضم تفكيره، تقدم منه صبي صغير.. باغته:

- مولانا تعال ورائي.

سار وراءه، رجل مؤمن يطيع ما يقدّره الله له، مشى وراء طفل صغير لم يتكلم أكثر مما قال، قاده إلى بيت طيني على حافة الوادي الكبير للبلدة، وجده مخلوع الأبواب، وجد أشياءه البسيطة مبعثرة، تلك التي تركها في بيته السابق، توقع أن الشرطة قامت بنقلها إلى البيت المتهالك نكاية به.

كان البيت يحتاج إلى بعض الترميمات البسيطة ليتأهل للسكن، وجد كوز ماء محطم، جلس يحمد، تهيأ ليتعبد، أتته معونات فورية من رفاق خلّص، وجد نفسه بين خمسة رجال، جلب كل منهم ما وجده من زاد يليق بمؤمن ترك دنياه وأنشغل رغم خطورة زمنه بالتحضير الجيد ليوم الحساب.. قال أحدهم:

- مولانا.. لم يكن بوسعنا تقديم أكثر من هذا.

قال الـ(ملاّ):

- هو من عند الله، تبارك خطاكم يا أخوة الأيمان.

قال آخر:

- مولانا.. أكرهنا على أشياء لا طاقة لنا بها.

- من يستغفر يجد الله خير معين لكربته.

تناولوا الطعام، صلّوا جماعة في تلك الظهيرة الصامتة.. !!

* * *

عادت البلدة لرتابتها، غادر التجّار، كل فرد جلس يحصي له وما عليه، منهم من يريح دائماً، منهم من يتحسر، كونه ظلّ يحصد باقات رياح، لكن الأمل ظلّ قائماً، بعدما نشرت الغيوم تلك الضحكات في قلوب المتمكنين، والبكاءات في عيون المستضعفين في تلك الليلة المشهودة، ليلة هطول المطر الاستثنائي.

* * *

* * *

تتـاثر خـبر، النـاس مـن فـرط اللهفـة، خرجت تبحـث عـن مـصداقيته، لم يـدم صـبرهم طـويلاً، وصـلت البـوادر الأولى إلى البلـدة، موكـب طويل، جحافـل قادمـة علـى حمـير تجـر عربـات خشبية، بعضهم تصور، فئات (غجرية) تالية.

وجدت البلدة منجماً كبيراً للمال والأمان، طالما هي محفل دائم للتجّار، كانت محض توقعات عابرة، غير مدروسة، تبخرت ما أن أشيع الخبر:

- بعثة (آثار) ستسكن (جلبلاء).

لم يفهم كثيرون معنى الكلمة الجديدة على قاموس الجهل، لكن الأيام كشفت لهم الكثير من أمور الدنيا الغامضة، عرفت النـاس، أن الوافـدين الجـدد، يبغـون قلـب أحـشاء (التـل الترابـي) الموجـود قـرب البلـدة، تلـك الـتي تقـع تحديـداً علـى حافـة الـشارع الرئيس الماضي إلى الشمال.

عـسكرت الجحافـل الوافـدة في سـاحة أرض منبـسطة، جنـب الوادي الـكبير حيث تقام فيها مناسبات الأعياد الدينية كل عام.

* * *

في اليوم التالي تجمهرت الناس حول خيام منسقة، جحافل حمير مربوطة، عربات، مواقد نار، وجوه حمراء ضاربة نحو السواد، عرفت الناس، أنهم (هنود) هرع البعض لعمل الشاي، قلي البيض، النساء وجدن عمل لهن، عملن أقراص خبز للبيع، من جديد تحرك سوق البلدة باتجاه ميدان سعادة وعافية مجهولة.

* * *

بعد يومين..

اندفعت الناس نحو أحدى الخيام، وجدوا رجلاً (أجنبياً) يدوّن في سجل كبير أسماء من يرغب العمل معهم، يجلس لصقه (مترجم) شاب يقوم بوسيط لغوي بين الرجل الغريب والناس، سجلوا أسماء من وجدوه مناسباً لعملهم.

بعد يومين..

كان الشباب يرفلون ببدلات عمل زرقاء، يحملون (أرفاش) ومعاول، ساروا بهيئة عسكر في مسيرة طويلة، وسط تجمعات ناس توزعت طريق الشارع الرئيس المطل على الوادي، رشقات زغاريد تنطلق من فم كل أم وجدت أبنها ضمن الجوقة، توجهوا نحو (التل الترابي)، بدئوا العمل، الناس سارت وراء الموكب، جلسوا يراقبون، توقعوا أشياء كثيرة بدأت تفرض نفسها على الخيال، أكوام تراب تنقل على ظهور الحمير لطرحها في المنخفضات.

في المساء..

عادوا متعبين، يتحاورون عن أشياء لم تحدث، بل خيالاتهم هي

التي ابتكرت مشاهدها.

* * *

تناثر خبر جديد غير سعيد:

ـ الحكومة تريد بناء دار عرض أفلام سينمائية في البلدة.

ناس تهامست بأشياء غير سارة تجري بالقرب منهم. ـ توقعت:

ـ الحكومة توجهاتها الفكرية (لا دينية)، تعمل على تحريرنا من تراث أجدادنا، بدأت تشيع منابت الفساد، أسوة بما يحصل للعالم من انحدار أخلاقي في المعايير الإنسانية النبيلة.

كان كلامهم مسنوداً بجملة حوادث عاشوها:

ـ الحكومة جلبت (الفجر)، وجلبت الأجانب لتلويث البلدة بأبخرة القطارات قبل إلغائها، جلبت (أجانب هنود) لإخراج الكنوز المدفونة في مقابر الأجداد لسرقتها.

في تلك الأثناء، وصلت بعثة محلية، تناقشت القضية مع النقيب (مالح)، بعد يومين من جولات تفقدية، وزيارات ميدانية، اختير (مقبرة البلدة) مكاناً ملائماً، لتشيد دار عرض أفلام سينمائية هادفة، وجدت الناس نفسها في حيرة تامة.. الكل توقع:

ـ كارثة كونية جديدة وشيكة الانفجار.

انتهى الربيع، توقعوا الجائحة هذه المرة، عاصفة ترابية لا تبقي ولا تذر، سمعت الناس، عبر مكبرات الصوت لمركبات الشرطة وهي تجوب الأزقة، تطلق أمراً صادراً من قبل الحكومة:

ـ المهلة شهر واحد، يتوجب تفريغ المقبرة من هياكل الأموات.. !!

تم ترسيم حدود مقبرة جديدة خارج حدود البلدة، بدأت الأيدي تحفر، كل واحد مرتبكاً يخرج تراب أمواته، لا توجد عظام، أكوام ترابية حمراء، نقلوا حفنات التراب إلى المقبرة الجديدة، بقت قبور أناس رحلوا عن البلدة، ويوم انتهاء المهلة المقررة، رأت عيون المحتشدين كيف قام(بلدوزر) بلا رحمة تقليب أحشاء التراب، حوّل المكان إلى ساحة منبسطة، مهيأة لتشييد أوّل دار (سينما) في بلدة(جلبلاء)، أحدث القبور كان قبر (أبو سمرة)، رأى الناس كيف سحق (البلدوزر) لحمه المتعفن، وجد رجل في نفسه بقايا غيرة، أندفع مجنوناً، تمكن من وقف (البلدوزر)، بعدما نام أمام أسنانه الفولاذية، توقف السائق، وجد فرصة مثالية للف سيجارة (تتن)، دخّن سيجارته براحة تامة، فاسحاً المجال الكامل، والوقت الكافي كي ينجز الرجل مهمته، لعب الحظ دوراً كبيراً في إتمام تلك الصفقة المجانية، بين السائق والرجل صاحب الغيرة، لأن رجال الأمن والشرطة، ذهبوا لتناول الغداء على حساب المقاول، نزع الرجل دشداشته، وضع قديد اللحم فيه، نقله راجلاً إلى قبره الجديد.. !!

* * *

أمّا في الجانب الشمالي للبلدة وبعد ستة أشهر من عمل مضنٍ، شاق، أزيح (التل) الترابي، توقعت الناس:

- المهمة انتهت من غير كنوز مزعومة.

لكن العمل تواصل، صارت الأرض صلدة، كتل حجرية يتم

إخراجها بمشقة، بعض الشباب هرب من العمل، البعض واصل مشواره رغم القسوة المتضاعفة، وجدوا في أنفسهم الفضول أقوى لأدراك سر عملهم، ستة أشهر من ترقب وانتظار، وجدت الناس نفسها تهرع نحو البعثة (الآثارية) جرّاء كلام معسول نقلتها بعض الألسن:

- الحفّارون وصلوا بوابة مدينة حجرية مليئة بالكنوز..!!

جاءت الشرطة، دفعت الناس لتتراجع عشرات الأمتار، كي يتواصل العمل من غير عرقلة، أفواههم تصرخ:

- يا عالم، أتركوهم يواصلون العمل بلا ضجيج، لا تفكروا ب (الفرهود)، لدينا تخويلاً كاملاً بالرمي.

توقفت عملية الحفر لأيام، رأت الناس، ذلك الرجل (الأجنبي) أحمر السحنة، أزرق العينين، يفرش أوراق كبيرة عليها خطوط متقاطعة، يقوم مرتبكاً بدراستها، سيجارة (الجروت) في فمه، بطل (منكر) أمامه، كان يعطي أوامر متقطعة لـ(الوسيط اللغوي)، ليباشر العمل، واصل الشباب العمل، رفعوا البوابة الحجرية العملاقة، كتلة صخرية على شكل رأس (غول) خرافي، كانت حشود الناس جالسة جماعات، تأكل وتشرب، نساء بدأن يزغردن، صمتت أفواههم دفعة واحدة، وجدوا ثغراً أرضياً كبيراً، قام الرجل (الأجنبي)، ضرب من هول المفاجأة بطل (المنكر) ودلق ما تبقى منه، سقطت نظارته، هرع نحو الثغر، تبعه (الوسيط اللغوي)، وراءه أندفع بعض الشباب من غير إيعاز، أنتظر الناس طويلاً، مرت الدقائق، الساعات، أنقضى النهار، رحل نهار

آخر، من يومها ضاع الرجل (الأجنبي) و(الوسيط اللغوي) وعشرة شبّان من أهالي البلدة.. !!

* * *

حول ذلك الثغر الأرضي، حدث لغط كبير، ارتاعت الناس. . توقعت:

- براكين نارية ستندلق لتحرق البلدة على رؤوس أهاليها جرّاء ضياع دروب الأيمان.. !!

* * *

وصلت قوافل التحري من العاصمة، يرافقهم رجال أجانب، قضوا أياماً يتناقشون، انتهوا إلى قرار مفروغ من أمره:

- تسوير الثغر بسياج محكم، محروس إلى إشعار آخر.

وضعوا دلالات تحذيرية تمنع دخول المنطقة. . الناس قالت:

- لابد أن الثغر باب (دولة الشياطين)، لذلك خافت الحكومة من مواصلة البحث.

بعضهم أشاع:

- الثغر بوابة الخروج من هذا العالم إلى العالم الآخر، من يلجه يسقط في دنيا جديدة.

مضت الأيام، تكاثرت الحكايات، شيئاً فشيئاً تناست الناس تلك القضية.. !!

* * *

بعد مرور ثلاثة أشهر على واقعة الثغر الأرضي، واختفاء رئيس بعثة التنقيب عن الآثار مع مترجمه والشبان العشرة، تم افتتاح دار (السينما)، رغم انتهاء بناءه قبل يوم افتتاحه بوقت طويل، غير أن الحزن الذي غلّف البلدة ترك أمره لوقت جاء أخيراً لحاجة ملحة، ربما ترتيب (سياسي) هذا ما تناثر سراً بعدما عرفوا الغاية من افتتاحه وسط هالة إعلامية غير مسبوقة، كثير من الناس وجدت الدخول إليه خروج من (وعاء) الأخلاق.. البعض همس:

ـ السينما منزل إبليس، من يدخله يحرم من دخول الفردوس.. !!

أمّا آخرون ممن أتخذ دنياه مسرحاً لغرائزه وهواه، راحوا يتباهون، يحملون بطاقات دخول مجانية، نثرتها مركبات الشرطة في الأزقة، أوراق ملونة طبعت بكلمات ترحيبية، رقم كبير يشير إلى رقم المقعد المخصص للجلوس، مع رقم آخر داخل دائرة، هو رقم العرض، كل من حصل على بطاقة دخول، عرف متى يأتي دوره في الدخول، لكنه بكر الحضور، مدفوعاً ببالون تباهي ينتفخ فيه، جاء واحتشد مع المحتشدين، سدّت المنافذ، المسالك، الطريق الرئيس للبلدة.

بدأ العرض، عرفوا ذلك من خلال الصوت الذي شاع من مكبر للصوت، موسيقى تصويرية، أصوات بشرية بدأت تلعلع، صمت مطبق على الحشد، تم تخصيص العرض الأوّل لوجوه البلدة، أصحاب الأموال، عائلات الشرطة،أمّا حشود الفقراء والمساكين، بقوا خارج المبنى يتلهفون، يتخيلون، يتفاعلون، منتشين تحت سطوة لهفة سكنتهم، يحترقون، يتضورون جوعاً، طمعاً برؤية ما يحصل

داخل البناية العملاقة.

في اليوم الأوّل.. أعيد عرض الفلم من غير فترات استراحة طويلة، حشود تخرج منتفخة الأوداج، سعيدة، حشود جديدة تدخل لتعبأ نفسها بفرح مجاني.. !!

* * *

بعد يومين عرفت الناس، سبب الفيضان الكبير الذي جرف بيوت الفقراء، لم يكن سببه المطر الاستثنائي الذي هطل، بل وجود عمل (سياسي) متعمد، خطط له ونفذ في وقت لا ريب فيه، اتفقت آراء المتناقشين:

- الفلم الوثائقي وضعنا في حالة صحوة وطنية.

صاحت أفواه تعبوية:

- أعداء حكومتنا الموقرة، حولوا مسارات مياه مخزونة تحت ستار المطر، نحو أرضنا، أتت جارفة، غارقة بلداتنا، يجب أن يدفعوا الثمن.

ثار غضب شعبي عارم، اتحدت النيّات البريئة، في ليلة دموية جديدة، هاجمت الناس تلك العائلات المنحدرة من أصول (بلاد العدو)، نحروا خلق كثير، أفسدوا بناتهم، حرقوا بيوت على رأس من لم يجد لديه الحيلة أو فرصة فرار.

* * *

هطل مطر قنابل بشكل عشوائي، عبرت المقذوفات المرسلة كبد البلدة، هزّت أرواح الناس، تنامى هذيان شعبي، وجدت

النـاس خـبر مفـزع مـذاع عـبر المـذياع الوحيـد المتواجـد في المقهـى الوحيدة للبلدة، إعلان صـريح لا لـف ولا دوران فيـه، حـرب بعيـدة المدى مع دولة جارة..

قالت ألسن:

- كنّا نتبادل التجارة، سنتبادل هـذه المرة تجـارة سيل القنابـل والدماء.

نشيد حماسي أنتشر، عبر مكبر صوت موضـوع علـى مركبـة النقيب (مالح)، تشق أحشاء الأزقة، تبعث روح جديدة في الأبدان، رؤوس بدأت تتحرك نحو مارد كبير، أكبر من جائحة الـذئاب، والكلاب، مـارد يجب وقـف زحفـه، نـاس حيـارى، سـكارى مـن أخبار تتناطح، تتناثر إلى سخرية مضحكة تارة، تبكي كثيراً.

رجال الحكومة ساهرون، يواصلون تجميع الرجال، النساء، يحشرون في رؤوسهم:

- حربنا مقدسة، سنذود عن حرمة أعراضا بمـا نملك مـن مـال وأرواح.

أينما ترسل عينيك، راية دموية ترفرف، جدران اصطبغت بلون الـدم، سمـاء مغلقـة بخـوف وعـذاب، هـواء تم تعبئتـه بأوركسترا الحماسة، وجدت الناس منفذاً للخلاص من الصراخ.. قالوا:

- الحـرب مـشروع مـريح للأعـصاب، سـتطهر آثـام الكسالى، فاقدي الصبر، فالأيمان من جهة، ومن جهة أخرى فرصة تاريخية لانتقام ذهبي من عدو أغرق بلدتنا.

مكبر الصوت يصرخ:

ـ الكرامة.. الكرامة.. كرامتنا الوطنية في خطر ياأهل الغيرة..!!

* * *

وضع كثير منهم في باله مشروعاً تاريخياً لو أشترك في الحرب، سيحصل راتباً رسمياً، سيرتدي حلّة جميلة مجاناً، سيغدوا محصناً من تخرصات رجال الشرطة، واستفزازاتهم الدائمة. . صاحت اصوات:

ـ بلاد أن لم تكن رجل (أمن) فيها ستغدو حملاً مؤهلاً للافتراس.

تحررت الناس من جلودها القديمة، بدأ الرقص علناً، قلوب تميل للطرب، للعبث، للجنون، جموع شبابية تسوق نفسها لآتون محرقة مجهولة، تلبية لنداء (وطن) أشيع أنّه مجروح، أفواج تلو أفواج، قوافل قتلى تأتي، جرحى تزحف، قوافل ترحل، شباب يكبرون بسرعة البرق، تعويضاً لخسارات يومية، نساء البلاد بعدما نزفن آخر قطرات ماء عيونهن، وجدن طريقة مناسبة للتعبير عن قوة الحزن في أصلابهن، ارتدين زي رسمي موحد، لونه ينطق أسود..!!

القسم الثاني

ذات ليلة شعر النقيب (مالح)، بتمل غير عادي يغزو جسده، بدأ يتنفس من أصابع يديه وقدميه، راح يسلك شاقاً طريقه نحو بقايا جسده، كان ممدداً على سريره، فشل أن ينام، رغم كفاحه العسكري الصارم، أخفق في إذعان طائر النوم كما كان يذعن فرائسه البشرية، ظلّ طائر النوم رافضاً أحابيله للسكن في عش عينيه، وجد التحديق في سواد الليل الحالك لعبة قديمة مجرّبة، فالعين تتخثر من خثرة السواد القاتم، تتطبق الأجفان بلا عقاقير، أنّه مفهوم علاجي قديم مألوف، وكل ما حوله سواد مطبق، منخور برشقات وامضة تنبثق من أمكنة متباعدة، تتناثر متوهجة قبل أن تضمحل، عرف. هناك (غارة جوية) قادمة من (شرق) سريره، هكذا قاس الاتجاهات الأربعة، رأسه شمال، قدماه جنوب، ذراعه اليمين غرب، ذراعه الشمال شرق.

ترك منامه، ترك موضعه، جذبه وميض يتلاعب وراء الجبال الشبحية المتفاوتة، عرف.. المعارك متواصلة، معارك بدأت بمناوشات صبيانية، خابت الرهانات البشرية الوسيطة لتدارك

استفحال القضية، فشلت مساعيها الحميدة، في تجميع آراء الطرفين المتلاسنين، طفت توقعات أوّلية لعقلاء المنطقة، روّضت المخاوف الإقليمية المتنامية:

- أطمئنوا.. نباح كلاب ستتعب سريعاً.. !!

بدأت القضية بمناوشات بسيطة حدودية، كانت تشبه إلى حدٍ ما قرقعات معدة سماء خاوية، كما كانت تحصل في أزمنة القحط، ستزول المخاوف حين تشرق شمس الحقيقة، سيجلس كل طرف إلى نفسه، يراجع قراراته السريعة، سيكتشف علاقة جدلية، لا يعدو الأمر سوى حشد نباحات كلاب بوجه حشد نباحات كلاب مقابلة، عيون الناس تنتظر، آذانهم طالت تبحث عن آخر تطورات التلاسن..

قالت أمم:

- ستتعب ألسنتهم من القذف والشتيمة، ستخمد ضربات قلوبهم، ستتخدر أبدانهم من هول الحماسة الشرقية الفارغة، ستصير حكايات رملية في كتب تاريخهم الورقي.. !!

لكن الأيام أتت بما هو مجهول، عالم الحروب عالم غامض، غير واضح النيّات، طالما هناك أمزجة (شوفينية) تجهز وقودها، تنفخ في مواقد متحجرة، دائماً تكتشف بقايا نيران نائمة، تؤجج ألسنتها لغاية ما.

يعرف العالم.. الحرب عجلة نارية تنحدر من أعالي التمرد، والخروج من بيت الطاعة، تتدحرج عجلة الحرائق، تسحق، تحرق، تردع كل الجهود العقلانية المصرّة على إخماد أوّارها.

نمت نار الحرب نمو سرطان يستوطن جسد غير محصن بفيتامينات المناعة، لم تنفعها العقاقير المضادة، بدأت التصادمات الحدودية تتسع، والناس تعرف نفسها أوان المحنة وقود وقرابين لا تنتهي.

عرف النقيب (مالح) من الوميض المتصاعد، المشتبك، أنّ (الهجوم الموسمي الكبير) المعلن عنه، عبر إذاعات لا تتعامل بمنهج (سر المهنة) قد بدأ، تيقن أنّ الحسابات الدفاعية المقابلة لأسياده، ستصد حتماً كل الحسابات الهجومية لأعدائه، تلك هي فلسفة الحروب الحديثة، كلّما يتقدم السلاح الهجومي خطوة، تلاحقه سلاح الدفاع خطوة مماثلة، تذكر دروسه العسكرية، رغم شغله منصب إدارة بلدة في ظل نظام قائم على خطة طوارئ أزلية، لم يشعر بتردد، لم يجد في نفسه رغبة إنهاض أحد جنوده، أو التقدم من حرّاسه الليلين القريبين من ملجأه، وقف غير مرتعد الفرائص، لا يشعر برجفة جسد جراء خوف يخيم على المنطقة، نبض قلبه حافظ على انضباطه، سحب رشقة نسيم جبلي، شعرت أغواره ببرد صحّي يتغلغل عميقاً، سالكاً تضاعيف عظام جسده، أغمض عينيه، راح يكرر شهيقه بمتعة، رغب تنظيف جسده من وسوسات الليل، جفوة النوم، فتح عينيه، وجد في السماء نجوم تأتي، أخرى ترحل، راقب مساراتها المتعرجة، عرف. فضاء البلاد ملغوم بأقمار صناعية تجسسيّة، رقّ قلبه على بلده، ساوره خوف مباغت، عطف على حكومته من نجوم تتلاعب في كبد السماء، تسرح وتمرح مستعمرة الفضاء من غير رادع، توقع.. الأعداء يحصون قدرات

البلد العسكرية، متانة المعسكرات، قوّة البنية التحية، أماكن الأهداف الحيوية، لابد أنهم سيعطونها لأعداء خادمين مقابل مال، هز رأسه، تذكر حاجته لنوم كثير.

كان الفجر بعيد جداً، لم يصمد في وقفته كثيراً، عاد وطرح جسده على منامه، شبّك يديه تحت رقبته، هزّات خفيفة تتذبذب، تبعث موسيقى مقلقة، عرف.. الأرض ترتج من وقع القنابل المتناطحة، شعر.. جسده يواكب الارتجاجات(القنابلية) بارتجاجات (قلبية)، انسجام متناغم، رغبة ضارية للتلاحم، يرغب الجسد الرقص أحياناً، من غير تمهيد، مجرد رقصة غير قانونية، هزّة بدن، الكلاب تدخل الماء، تتمرغل بالتراب، تقف، تنتر أجسادها، تنفض ما يتعلق بها، رذاذ ماء، ذرات تراب، يشعر المرء أحياناً بهكذا رغبة تستوطنه، رغبة الرقص المباغت، تعبيراً عن فرحة مباغتة، مجرد شعور محض، أينما يكون، في المنام، الشارع، أحياناً يرغب ذلك، وسط جمع من الناس.

شيء من الخوف بدأ ينمو، لا خوف يعرف غير خوف قديم، من أنهضه..!!، لم جاء.. !!، وقته ليس وقت خوف من أشياءه الخاصة، ركّز ذاكرته على القشعريرات المتنامية، حطت ذاكرته على خوفه القديم، يوم فحصه طبيب مشفى (جلبلاء)، عرف تفاصيله فيما بعد، أستعاد تلك اللحظة.. !!

* * *

كان ممدداً على سرير خاص في ردهة خاصة، كان الوقت ليلاً والبلدة تخضع لـ(حظر تجوال)، نشر شرطته حول بناية

المشفى، حتى أقرب شرطته إليه، لم يعرف لم دخل سيده الضابط مع الطبيب ردهة مغلقة تماماً، أمضيا ساعتان من التذمر، كانت صفعات البرد القارس تشوي وجوههم، أجرى الطبيب فحصاً شاملاً لحالته العرضية، صمت، خاله يراوغ لكتم النتائج، أنتظر دقائق ثقيلة، أراد كلمات تطمين تريح أعصابه، بضع كلمات نافعة ترفع زخم شراسته، كون البلدة تمر بحالات تغيير في المعايير السياسية، والناس تتلاعب بهم وسوسات التمرد.

أجبره قول الحقيقة، بلع الطبيب ريقه.. صارحه:

- في دمك شيء غريب.

- ماذا تعني بغريب.

- وباء غريب غير معروف.

- ما مدى خطورته.

- حالة نادرة حضرة النقيب.

- قل الحقيقة.

- وباء وراثي مستشري في دمك، تحتاج إلى فحوصات دقيقة.

- ستتولى أنت المهمة بكتمان تام.

ظلّ يراجع طبيب البلدة، في فترات متفاوتة، تحت أعذار يختلقها، في محاولة التخلص من الكوابيس المتوالدة في ذهنه، لا يريد الموت باكراً، ما زال في أوّل سلّمه (السياسي) وأمامه فجر ملغوم بأطماع بلا حدود وأحلام قيد التحقيق.

في معالجة لاحقة، أقنعه الطبيب:

- ضرورة أن تتبرع الدم بصورة دورية.

تناقشا حول تلك القضيّة بصراحة، أكد له الطبيب:

- سأقوم بفحص تلك القنينة من دمك، لمتابعة النشاط الوبائي المتفاقم، ومدى إمكانية الالتفاف عليه، أو وقف انتشاره السريع في ربوع جسدك.

أكد أيضاً:

- سأقوم برمي الدم في النهر.

صمت قليلاً.. تراجع عن كلامه:

- سأحرقه، وباؤك قابل الانتشار.

النهر مصدر أساسي للزراعة والشرب، والماء حاضنة فاعلة لنمو خلايا فيروسات وبائية،تذكر هذا الكلام وقرر اللجوء إلى الحرق من باب سلامة الجميع.

واصل دورة علاجه، كان يذهب كلما يشعر بضغط الدم، يتبرع قنينة ويحقنه الطبيب بمضادات حيوية تنعش جسده، يشعر. . راحة استثنائية تغمره، رغبة تحليق تداهمه، يعرف أنّه كائن بشري لا يملك أجنحة، يعوض رغبة التحليق برغبة أخرى تدفعه منتشياً يقود مركبته على الشارع الرئيس وبين الأزقة، ينتشر في جسده مصل نشوة عظمى، يزول فتوره وتتصاعد همته، ليعود متحمساً يمارس نشاطه (البوليسي) بعزيمة مضاعفة.. !!

* * *

مضت سنة وشهر على آخر تبرع قنينة من دمه، أنسته ظروفه الحربية أعتناءاته المتواصلة بنفسه، لم يعد ذلك المتأنق، الرجل الذي إذا مشى في البلدة، يخرجن النسوة من أجل الفوز بمشهد

وسيم تفوح منه رائحة مثيرة، عطور تنفخ أجسادهن بنار الشهوة، يتأففن، يتهامسن سراً فيما بينهن، القول الأكثر انتشاراً على لسانهن:

- ليت رجالنا مثله.. !!

لم يكن في باله شيئاً من أيّامه السالفة، أنسجم مع حالته الجديدة في معسكره، كونه أعلم مقدماً أن واجبه لا يعدو سوى معايشة ميدانية محددة، سيشمل كل الدرجات العليا في البلاد.

الخوف القديم باغته بكامل تجلياته، في وقت غير مناسب، فهو لا يرغب ترك مهمته، صب تركيزه على توقعاته الشخصية، حاول إقناع نفسه، أن قضيته مجرد وهم شيطاني يماحكه، بسبب عدم تمكنه من النوم، ما كان يعانيه، شخّصه بنفسه، مجرد معانات لا تعدو غير متاعب قلبية، ناجمة جرّاء حرصه الفائض على سلامة السلطة، أكثر مما يبدي من حرص مناسب على راحة جسده، عدم أعطاء جسده ما يستحق من راحة، كي يبقى عقله سليماً، ودورته الدموية تواصل نشاطها بشبابة متقدة، داعبه ظن مباغت، أنّ الطبيب أخفى عليه ما كان يستوطن دمه، لم يرغب لومه، وجده على حق، فالناس تخاف من رجال السلطة، دافع غريزي ينهض عند ناس بلدان الدول المتأخرة، ليس بوسع أي إنسان أخفاء خافية عليهم، الناس تتصور، رجال السلطة يمتلكون مراصد ذهنية خارقة، لهم مجسات ذهنية تكشف المستورات الذهنية، القلبية، اللسانية، العينية، أمامهم تنهار سدود الأسرار.

على ما يبدو، دمه ضج، زاد عن حدود وعاء جسده، يقين

شنّجه، فكر من أجل إيجاد مخرج من العارض الآني، وجد الليل حاجزاً معيقاً للتنقل، لا يريد الموت، رغبته للحياة عنيدة، رغبة الموت المبكر اختبار صارم، يتوجب اجتيازه، يمكن دفنه نهائياً بعيداً عن ذاكرته، وجد الموت حالة ليست عرضية عبر أزمنته البوليسية، رأى الموت بأشكال متعددة، شارك في مهرجاناتها السياسية، الطارئة أحياناً، موت عن طريق الخطأ، موت يباغت من غير مقدمات.

تذكر تلك السجينة التي لفظت روحها جرّاء فعل غير عفوي طبعاً، يوم أمر بتجريدها من ثيابها وإلقاءها عارية في زنزانة الرجال.

سجين آخر لفظ روحه بمجرد رأى رأس مقطوع أمامه، لم يحتمل رؤية رأس مقطوع يرفض (إغماض العينين).

هناك نوع آخر من الموت، موت غير رحيم، رؤوس أتته، حدّق بكامل جرأته في عيون متحجرة، قد تحتفظ تلك العيون بملامح الجزّار الذي قام بفصلها، بدت الفكرة جديرة بالمناقشة، العلم ما زال يتخبط في بواكيره منابته، بخصوص كشف الأسرار العينية، العين أهم عدسة كونية قانصة للأشياء من غير رتوش، بلا تشويه، الرجل الذي لفظ روحه كان يعمل قصّاباً، ضبط متلبساً ينحر حمير سائب، يبيع لحومها إلى الناس بأثمان زهيدة، تمكن قطع رأس جملة حمير، لكنه لم يتمكن رؤية رأس إنسان مقطوع، مفارقة ساخرة من مفارقات الحياة.

باغتته فكرة ممتازة، أعاد الموضوع في ذهنه، حاول إعادة ملامحه، شيء وامض برق، تأكد بما لا شك فيه، ثمة خيط

واضح يربط بين القضيتين، بين الذي لفظ روحه داخل الزنزانة، وبين الرأس المقطوع مفتوح العينين.. تمتم:

- لم غابت عن ذهني هذه الملاحظات المهمة لحظتها.

هزّ رأسه، قد يكون القصّاب هو الفاعل، لفظ روحه لحظة رأى الرأس المقطوع، يقين رسخ، أنّ صاحب الرأس المقطوع، كان شاهد عيان على قيام القصّاب بذبح حمار في يوم (عرفات)، لم يحتمل القصّاب الفضيحة، قطع رأس الشاهد لدفن سره، لم يجد تأويلاً أقرب لقلب الحقيقة من هذا التأويل، دليل مؤكد توالد في لحظة صفاء.

رغم عدم تمكنه من النوم، وجد نفسه يعيش لحظة تتقد فيها ذاكرته، يمتلك قمّة ذكائه، الرأس المقطوع وجدوه مغمض العينين، بعدما جيء به مفتوح العينين، حصل التزامن داخل الزنزانة، سجن القصّاب حصل قبل إيجاد الرأس المقطوع بيومين، أغمض الرأس عينيه ما أن سقط أمام القصّاب، لفظ القصّاب روحه ما أن سقط الرأس أمامه، لم ينتبه أحد لذلك اللغز المحير.

الآن بعد مرور زمن ثقيل اتضحت الأمور أمامه. . تمتم:

- بالتأكيد قام بخلط لحم الشاهد بلحم الحمير وباعه للناس.

هزّ رأسه، عرف.. تلك الحكاية صارت من ماضٍ لن يعود.

* * *

عاد لنفسه، بدأ دارسة وضعه المتفاقم، موت يأتيه في مكان لا شاهد يشهد موته، لا مسعف يستصرخه، شعر بمخالب ناعمة

تلامس مساماته، رائحة حريفة تنبعث منه، دبابير تلسع، عطر فاسد، ريح نتنة يخنق فضاء الملجأ، رفرفت الغشاوة، مست رموشه المستفزة، غشاوة ودودة، تتعامل برفق، بحنو، هدهدت عينيه، شعر بتمل حاد ينتشر كالبرق الخاطف عبر أوردة جسده، شيء عنيد صفعه، أجبره التخاذل، استسلم، تهاوى مغمى عليه.. !!

* * *

كان ذلك، في العام الثاني للحرب، حنّت الناس لأيّامها المنصرمة، استذكرت الكلاب التي قهرت الشرطة، واحتلت البلدة لنصف نهار كامل، قبل التجاء الحكومة لطريقة غادرة، قامت بخداع الحيوانات، كما خدعت معارضيها يوم لم شمل الأحزاب الوطنية، لم تجد الناس فرقاً بين الحيلتين، استدعت السلطة أطراف (الثورة البيضاء) أو ما سميّ يومها (الجبهة الوطنية) دعتهم إلى اجتماع طارئ لتوزيع هبر المناصب.

كانت القاعة مكهربة بالبنادق، نحروا الجميع في كتمان، فلت منهم من تخلف لحسن حظه.

كذلك ما رسوا الخدعة مع الكلاب، سمموها برمي جبال اللحم، لإعادة السيادة البشرية للبلدة.

كثيرون تحسروا لعودة السلطة إلى البلدة بعد دحر الكلاب، اعتبروها عودة غير ميمونة، كون ذلك الـ(نصف نهار)، بقى، أطهر، أهدأ، أنظف، وقت عاشته البلدة.

في ذلك الـ(نصف نهار) لم يمت أحد، لم تعض الكلاب أحد،

لم تلتهم الدجاجات العاقة، التي أبت ترك مزابل الأزقة، كونها غير مشمولة بقانون (حظر التجوال)، عكس النهارات التي حفلت بمهرجانات الموت، بحفلات التعذيب العلني، بسرقة الدجاجات علناً، كانوا يرون رجال الشرطة يجوبون الأزقة بحثاً عن دجاجات سائبة، يصطادونها ويمضون إلى أقرب فرن صمون لوشيها والتهامها.

في ذلك الـ(نصف نهار) توحدت أفكار الناس، انتظمت ضربات قلوبهم، راحت العيون تتصافح متسامحة، تراقب كلاب غير طبيعية، لديها أخلاق فوق العادة، تمشي بنظام حيواني غاية في الانضباط، واقفة على طول الشارع الرئيس، كأنها كراديس عسكرية، متهيئة لاستقبال موكب مهم لسيادة (دولة الرئيس) .

مرروا همسات بدأت تورق زمن الحرب:

- الكلاب أرحم منهم.. !!

* * *

الناس بدأت تسترد سيرة أيام العذاب الجماعي، تفاصيل الفوضى، قانعة قناعة تامة، أنّ الكلاب الحيوانية ممكن ترويضها، لا تحتاج إلى صرف جهود، لا تحتاج إلى خسائر تذكر، عظمة محفورة بأسنان فقير، كسرة خبز يابس، أشياء مهملة، لا يحتاجها المرء، غير مكلفة طبعاً، تكفي جعل أي كلب غير مهذب، تربى خارج بيت الطاعة، أن يحرسك إلى الأبد، صفير لساني يفي بالغرض أحياناً، يقنع أشرس كلب على وديّة العلاقة

بينكما، دعوة دنيوية لرفقة أبدية.

الكلب يعلن سلامه الدائم، عبر هش ذنبه، يرقص جسده طرباً، مرناً يتزئبق الجسد الأسطواني، ذنبه مروحة، يدير مؤخرته إليك.. كأن لسانه يصرخ:

- أرجوك سيدي البشري أضربني (جلاّق).

الكلب يجهر رغبته علناً، في قاموسهم الكلبي، يعني توقيع (اتفاقية أمنية) طويلة الأمد بين حيوان وفي، وإنسان شيمته الغدر، نم قرير العين يا من ضربت ببوز حذاءك الجلدي (جلاّق) مؤخرة كلب جائع، أو بلا مأوى، حتماً سيحرسك لا يسرقك، عكس كثير من بشر اليوم، توقع معهم اتفاقيات عمل، تشاركهم بمالك في صفقات تجارية، ستغدر، ستسلب، إن كنت غافلاً عنهم، أو بادياً لهم من الطيبة والعفوية أكثر مما يستحقون، فالعلامات الفارقة لا تتماز بين الكلاب الحيوانية والكلاب البشرية..!!

* * *

بعد رحيل أو إبادة الكلاب في تلك الواقعة المشهودة، وجدت الناس كلاب بشرية دائمة الغضب، تواصل بعيون حارقة، بألسن سالقة، النهش حتى العظام، هتكت أعراض، قتلت ناس، سلبت أموال، شتّت عائلات، ساقت أبرياء قرابين لحاكم لا ينام، أفواج شباب توزعت ما بين القتل، العوق، الأسر، تخثر حزن ثقيل، كست الوجوه الشيخوخة، استحال إلى لون فرح غامض، ضحك كالبكاء..!!

شاع الفرح يوم تناقلت ألسن نبأ كبير، أخبار البلدة نيران لا يمكن حجبها، هرعت أفواج رجال لتتأكد من صحة خبر شاع، النساء وقفن يفسرن الخبر حسب توقعات تنسجم ورغباتهن، عادت الأفواج الاستكشافية مسرعة، بدأت تبيع أو تذيع الخبر (ببلاش) إلى أفراد البيت، من ذهب وعاد.. راح يقسم:

- رأيناه بوضوح، متذمراً يلملم أغراضه الشخصية، استعدادا للرحيل إلى جهنم وبئس المصير.. !!

تصاعدت (زغاريد) نساء من بعض البيوت، البعض هيأ نذره للإيفاء به، القسم الذي أبرموه سراً مع أنفسهم، توحد بين الجميع، فقط رهاناتهم هي التي اختلفت، كل واحد نظر إلى رغبته بما يملك، حسب طول يديه، هدف رئيس طال عليهم تحقيقه، آن أن يفي كل من نذر نذره:

- حضرة النقيب (مالح) سيترك البلدة.

كلام قاله كل لسان، بعدما شاع قرار الحكومة:

- الواجب الوطني يتطلب مشاركة فعلية، وميدانية في الحرب، كل عضو بارز في الحزب ودوائر الدولة.

قرار لا يجوز تنويمه في درج مكتب، أو إلقائه في سلة مهملات، كونه صادر من مجلس عالي المقام، ليس من ثغرة للانسلال منه.

النقيب (مالح) أستقبل القرار بشيء من التحفظ، ليس بوسعه إبداء ردة فعل، أي تذمر يقود المرء إلى حتفه، تذمره الذي رأوه، أو هكذا فسروا تحركاته من خلال نافذته مكسورة الزجاج، لم يكن خوفاً من ثعبان الحرب، بل نجم جرّاء الفرح العارم الذي

شمل كل بيت بالتساوي، شمس أشرقت بعد شتاء عاطل، عمّت أبناء البلدة بدفء لذيذ، حاول أن يقنع نفسه، المهمة التي جاءته، ليست طويلة الأمد، أيّام الفقراء ثقيلة، أيّام السعداء سريعة، تركض كالغزال في أرض معشوشبة، سيرجع، سيقتص من مشيعيه بالفرح، سيقايض فرحهم بفرح شخصي، مثلما أضمر في نفسه الشر للملاّ (صالح)، يوم شعر باستخذاء أمامه، عاد مرفوع الرأس، حقق انتصارا ساحقاً عليه، جعل البلدة كلّها تستتكره، أستقر موقفه النهائي على تلك الفكرة، قبل أن يطل على الناس، وقف أمام البناية، رمقته العيون يسحب شهيقاً غير عادياً، زفر بصوت بوقي ما تكدس في رئتيه من هواء فاسد، شاهدوا حرائق جوفية مهزومة تتبعثر في المسافة الفاصلة بينهم وبينه، رأوه يترجل من مكانه، يهبط درجات السلّم الحجري بتعثر واضح، صعد مركبة، مضى غير مأسوفاً عليه إلى آتون الحرب.

* * *

لم تكن مهمته الجديدة صعبة للغاية، لن يغدو حارس حكومة، يسهر ليل نهار في الخطوط الأمامية للمواجهة، شاهراً سلاحه، مراقباً مسار القذائف الآتية، لا رحمة في حروب اليوم، لا توجد ثقة متبادلة بين أي طرف من طرفين متقاتلين، كل مضارب الأخلاق تغدو ضباب محض، مملكة غابة بلا قانون، حملان طليقة وكواسر جائعة، معسكر يزحف ليقتل معسكر يقف يشهر سلاحه للقتل.. !!

- (أقتل قبل أن تقتل)..!!

فلسفة قتالية، مصل شجاعة حقن بها رأسه أيّام التدريب في الكلية العسكرية:

- أقتل دائماً من غير خطأ واحد، ربّ خطأ واحد سيمنح غريمك فرصة مثالية لقتلك، لا تنام، الذين يحرسونك ليسوا كاملي ثقة.

- ناس تعشق الحروب قبل اشتعالها، حين يكونوا فيها، تتطاير تذمراتهم، تتصاعد ابتهالاتهم، توسلاتهم لوقفها، ناس تكره الحروب، تلعن سرّاً مسببيها، لا يتوجب عليك أن تنام، كن ذئباً في الحرب، نم بعين واحدة، أجعل الأخرى حارستك، الغدر موجود في الجوار.

النقيب (مالح) أستدرج ما تراكم في ذهنه من خطب حربية، بحثاً عن تفسير مقنع للجوانب الأخرى للحرب، الدواعي، الدوافع، النتائج، ليس غريباً عليه التعامل اليومي بالسلاح، رجل تدرب على القتل، خاض أشواطه بعزيمة قبلية، رغم وجود دوافع ذاتية، للمشاركة في احتفالات شعبية لقتل الغريم، سكنه الفرح، يوم قرأ قرار مهمته الحربية الجديدة، وازن المهمة الجديدة بميزان عقلٍ سياسي، وجد المهمة هي نفسها، لا فرق بين القتلين، كل من لا يساند حكومته غريم فوق كل اعتبار، وجد نفسه في معسكر مفشوش بأشد أنواع التمويه تعقيداً، مكان يستشرف على مسالك مؤهلة لسير البشر، بعيداً عن متناوش القنابل، ومخالب الشظايا المسافرة، لا فكوك للموت في جواره، أماكن سرّية للغاية، من يقتل فيها يغدو مع الريح.

في البدء خال واجبه رصد المتسللين إلى البلاد، لكن أوامر سريعة غير متوقعة أتته، جاءت بسرعة البرق، اختارته عصا الحكومة الشاهرة، العين الأمينة الساهرة، كامل التأهيل، يمتلك نادر مواصفات وطنية، مخوّل لوأد كل الدمامل الفاسدة في جسد الحزب والدولة، حفاظاً على أمن السلطة من سرطان خطير بدأ يهتك بالجسد الفتي للحكومة.

وقع عليه الاختيار، (آمر مناسب) لواجب خاص، غمره الفرح، كونه نجا من مجابهة مبكرة مع عدو شرس، يقف على مقربة منهم، على الساتر، أو في الحجابات، رجل يقاتل وقوفاً، نسبة قتله يكون كبيراً، أثلج القرار صدره، قبل أن يفاجئ بمجابهة من نوع آخر، عليه أن يرمي الرصاص بلا خطأ، فالمقتول يقف على مسافة متر من فوهة مسدسه، مقتول أعزل، معصوب العينين، موثوق اليدين، رغم صلابته وتمرسه في فن القتل والتعذيب.

خضع لاستخذاء مباغت في أوّل عملية إعدام جنود فارين من المعركة، مثلما حصل له أمام الملاّ(صالح) داخل جامع البلدة، خمس جنود فارين من الخطوط الأمامية، لا توجد محكمة، هو الحاكم كما جاء في القرار، محاكمة فورية، لا يجوز ترك المتهم التكلم للدفاع عن نفسه، فقط يتلى عليه قرار التخوين، يطلق الرصاص عليه، لا يوجد استئناف ضد قرار أتخذ من قبل قيادة حكيمة، أحكمت الخناق على منابت الرفض.

في تلك اللحظة ارتجفت يده، أضاع الرؤوس الخمسة، وجد نفسه إزاء مئات الرؤوس تتحرك من حوله، تاه، ظلام دامس،

دوران، زوغان، قواه الجسدية، العقلية، إرادته، نزف ممتلكات رجولته، لا حيلولة لديه، يتوجب القتل، رد الاعتبار واجب من واجبات المواطن الخدوم، المضحي بالغالي والنفيس.

أسترد وعيه المشتت،وقف يستصرخ، تدخل أحد جنوده، أخرجه من فك كابوس امتحانه الأوّل، سقطت أجساد خمس، اتضحت الرؤية، عاد ليثاً لا يقهر، تشجع، لا يجوز الخروج من الاحتفال الوطني من غير شارات، أوسمة، أنجز المهمة الخالدة بمسدسه الشخصي.

وضع في رأس كل جندي محتضر طلقة (رحمة)..!!

* * *

فتح عينيه..

أكتشف نفسه على سرير غريب، تصور المسألة مجرد عدوى طارئة، أفلاونزا بسيطة سيخرج منها عالي الهمة، حصاني الصحة، مجرد كابوس عابر، سيتحطم على صخرة أخلاصه، فهو كما تصور ما زال صاحب الأمن، حامي حما السيادة الحزبية في بلدة أحبها، أقنع نفسه بذلك.

وجد البياض المهيمن شاشة سينمائية، شاشة خياله سيجتر تأريخه الشخصي، لكن ما في باله سراب محض لحظة مرض، غبار هارب، وجد ما هو غير متوقع.

خمسة أجساد، طويلة، نحيفة، تبث شكوى، واحداً واحدا هبطوا، وقفوا إزاءه، كل شبح مد يداً فيها مسدس، كل مسدس أفرغ حفنة رصاصات فيه، وجد نفسه يتفتت، يتلاشى..!!

استفاق على صفعة متوسطة العنف، جندي أسمر، غليظ النظر، يقف عند رأسه، خجل يسأل، عرف أنه مريض في مكان ما، كيف نقلوه، عجز الوصول إلى جواب سؤاله، كل شيء حوله يعلمه بمرضه، وجد عينين جامدتين فيه، أشار الجندي، لبّى أمره، سكت، أطاعه على مضض، ما زال يحتفظ بذاكرة لا تفلت الأشياء بيسر، يعرف منزلته، ضابط كبير برتبة نقيب، هذا الذي يأمره جندي صغير، مرض عنيد يشلّه عن أيما حركة، سمع همسات، أصغى دون أن يرد.. الجندي كرر كلامه:

- لا تصرخ ثانية، هل سمعت.. ؟؟

كلام كبير أطلقه لسان جندي صغير، خرس، خجل، لسانه مشلول، يعرف، شلل وقتي، شلل العجز عن أيجاد كلمات مناسبة يقولها، اكتفى بهزة رأس، وجد الجندي ينسحب، رآه من الخلف، يمشي، يتبختر كبطة في أحشاءها بيض كثير، عجيزته الكبيرة تتراقص، بيده سلسلة صدئة، بيده الأخرى أنبوب مطاطي بطول ذراع، عرف. قدم يعمل شيء ما، جاء يربطه بالسلسلة، ويطعم جسده بفلقة ساخنة بالأنبوب المطاطي، غمرته راحة تامة، كونه تخلّص من عقاب كان مقروراً.

رتبته العسكرية ربما وقفت عائقاً بوجه رغبة الجندي الأسمر.

* * *

لا يعرف سيادة النقيب كم مر من الوقت، أسير سجن غريب، حاول يسترجع المسببات، راجع أوراق حياته الجبهوية، لم يشارك

في احتفالات الخطوط الأمامية، حرب شعواء، قتل بالجملة، دفن القتلى بالبلدوزرات، وازن نفسه، قد تخاذل، أو رغب أن يتخاذل، اقتنصته أعين السلطة الساهرة، فهو ما زال يحتفظ بكامل وعيه، خبير بشؤون الأمن، تدرب على كل الاحتمالات المخابراتية، يدرك، جيداً أحابيل حكومته، على كل عين ساهرة، عين أمنية أخرى تسهر، السياسيون الضلعاء لا يثقون حتى بأبنائهم، تحرسهم سلسلة معقدة من رقباء لا يخطأون في تقديراتهم، يقرؤون عيون الرعية بما تطرحه أمزجتهم التلصصية، مهمتهم اقتناص الهمسات السرية للناس وتحويلها إلى تقارير شنق.

استبعد كل ظن حام حوله، قبّر كل هاجس رغب أن يمازح ذهنه، لم يبرح مكانه، آمر سرية إعدامات، واجبه، إشراف مباشر على إعدام جنود يفرون من آتون المعارك، يقوم شخصياً بإنهاء المهمة العسكرية، طلقة لكل رأس، (طلقة رحمة)، راجع نفسه كثيراً، كم طلقة (رحمة) أطلق، هل كان حقاً مؤهلاً ليكون صاحب الطلقة (الرحيمة)، تناقش كثيراً حول هذه الطلقة اللعينة، لم سمّوها (طلقة الرحمة)، لم لم تستبدل هذه الطلقة بـ (كلمة) تسمّى (كلمة الرحمة)، ربما أخطأ في تصويباته الرحيمة، لذلك ساقوه، وضعوه في سرداب خانق، يحرسه جندي غير رحيم، جندي يختلف عن شرطته، حتى عن جنود سريته، يمتلك عينين لا ترتجفان، لا تستحيان.. لا يتكلم:

- نظرة واحدة من عينيك، يصمت هيجان الشهوة من العربدة.

كلام يعتز به، قالته غجرية في أذنه ذات ليلة عسلية.. !!

مرت أشهر، عرف السيد النقيب سبب رقاده في مكانه الجديد، نفس السبب القديم، حالة عكرت مزاجه في فترات تمردية، تأتي في أوقات عشوائية، تقلقه.

ذات يوم صارحه طبيب مشفى(جلبلاء)، أسّر في أذنه:

- خبث غريب يستوطن دمك.

عرف كيف جيء به إلى هنا، كاشفه طبيب شاب، على كتفيه رتب عسكرية متقدمة، جاءه، جلس على مبعدة منه، سمح له أن يتكلم مستلقياً على فراشه.. قال الطبيب:

- يجب حجرك.

- هل بوسعي أن أعرف ما الذي يجري.

- داؤك خبيث، لنكن صريحين، الدواء موجود، ليس قبل أن ننهي الفحوصات الوقائية كاملة.

- هل يطول ذلك.

- حالتك استثنائية، ربما داء سريع العدوى.

- هل من الممكن تبديل هذا المكان.

- الردهات مزدحمة بالجرحى.

- ما هو الموقف في جبهتنا.

- المعارك متواصلة.

- لا أقصد ذلك.

- آه.. أطمأن.. هناك من يقوم بواجبك على أكمل وجه.

دوّن الطبيب جملة غامضة في طبلته، تعذر عليه معرفة ما كتب..!!

نقلوا النقيب (صالح) إلى مكان ما في مركبة خاصة، في الطريق شعر بوهن أوعز لذاكرته التجول بحرية تامة، رغب يقتل وحشة ظلّت تتراكم فيه.

المركبة تمشي، تشق أحشاء خياله، تمزق أقبية ضميره، لا يعرف أين تأخذه، ربما تأخذه إلى مكان ما، محرقة بشرية مثلاً، حياً سيحرقَ، أو يزرق بإبرة مميتة قبل حرقه، إبرة (رحمة) ربما، فيما بعد يذر رماده في نهر النسيان، مثلما كان طبيب بلدة (جلبلاء) يحرق قناني دمه الفاسد.

ربما يأخذوه إلى مشفى في العاصمة، سيعطونه علاجات خاصة، تثميناً لخدماته الممتازة، رجل عسكري حافظ على انسيابية القانون الجديد للبلاد، تضاربت توقعاته الهلوساتية، تداخلت ظنونه، راح يفك اشتباكات صارمة في صحاري ذهنه، وجد التسلية منتجع مريح، حديقة قتل غابات الوحشة لرحلة شاقة.

عاد ذهنه يتجول في أزقة أيام قديمة، وجد تلك العلاقة التي شاعت بينه وبين (وداد) أفضل مهدأ لرأس تشتبك فيه هواجس عابثة.

* * *

سكن في بيت كبير، رجل وقور أبيه، امرأة تمتاز بشخصية استثنائية أمّه، تعرّف على (وداد) في جلسة عائلية خاصة، تناقشا، سبرا غور كل شيء، سهر تلك الليلة مشياً وراء سحر غريب جاذب، وجد نفسه، غريق في محيط حلم، تطورت العلاقة

التفاهمية الأولى، أنتجت شجرة كبيرة ثمارها رغبات، أشواق فوق العادة، تشجع، أندفع، همس خجول نما، حريق شب، رغب أن يطفئه. . قال لأمّه:

- أريد (وداد).

في نظرة الأم، شع بريق علامات رفض واضحة، غضب تأجج، توقف نهائياً عن إعلانه، باغتته الأم:

- قلت. . تريد (وداد).

- لم أعد أرغب في قولها مرة أخرى.

- لم لا ترغب قولها ثانية.

- أشعر بشيء غامض في حياتي.

- لا تشغل مشاعرك بعواطف زائفة، دخلت الأكاديمية الحربية، ستتخرج ضابطاً، ستمضي بعيداً في المجتمع أيها الولد.

- حسناً. . يا أمّي كما ترغبين.

الأب باغته ليلاً، عرف.. لابد الأم حكت رغبته له، جلس احتراما، كان طريح السرير يقرأ في كتاب.

قال له:

- يمكن تأجيل العاطفة لما بعد العاصفة.

- أبي شاعر، فيلسوف ضليع.

- الحياة مدرسة تعطي من يرغب التعلم.

- ليت أنهل من هذه الحياة ما يشبع رغباتي.

- ستشبع من رغباتها بعد دراستك.

- أشهر قليلة فقط، سأرفع رأسك ياأبي.

قام الأب، توجه نحو النافذة، لم يعرف، لم فعل الأب ذلك، وقف صامتاً، أنتبه، حركات يدين، ترتفع، تنخفض، قام، توجه نحوه، وجد عينيه دامعتين، مسح الأب دموعه، أصطنع بسمة باهتة، أستقبل بسمة الأب بعناق طويل، عادا، جلسا على السرير، رغب أن يتكلم.. الأب باغته:

- بين الحين والحين أجد أعماقي تفيض بشلال حنان ثائر، حدائق سلام نظرة.

- أرجو أن تكون دموع مسرات.

- حكمة كبيرة نجهلها، لا تأثير لدينا على ما دوّن في سجلات أقدارنا.

- دائماً ترغب قول شيئاً مالي.

- حياتنا جملة أشياء مبعثرة، التجارب تعلمنا كيفية لملمة أشياءنا الخاصة، إعادة تشكيل ما يناسبنا منها، ليس كل أشياءنا مفيدة طبعاً، كذلك ليس كل أشياءنا ضارة أيضاً.

كانت آخر ليلة في حياة الأب، في الصبيحة مات، وجده في فراشه، بكى كثيراً، تعود شيئاً فشيئاً على فقدانه الدائم.

* * *

تخرج (مالح) من الأكاديمية، صار ضابطاً، تباهى بشكله العسكري المنضبط، ماتت الأم أيضاً بعد فرحة تخرجه بستة أشهر.

وحيداً، سفينة عملاقة حياته، فاجأته رغبته العنيدة، همساته

الغزلية الأولى، وجد الدافع نار ضارية، يقين راسخ يحركه، ذهب إلى عائلة (وداد)، استقبلوه بشيء مختلف عمّا كان، شعر. هناك تفاوت كبير في ترحيبهم، شعر. ضيق خانق يبدد العواطف، رغب. إنهاء القضية في جلسة قصيرة، فتح مشروع مسراته، مصاهرة عائلية ممكنة.

لم يكن الرجل الجالس أمامه، هالة غامضة، رجل صريح، يعرفه عن كثب، يحكي الأشياء كما هي.. قال له:

- تقتضي الأصول جلب الخطيب والديه.

أستغرب (مالح)، كلام مزاح ثقيل، الرجل الجالس أمامه يعرف أبويه ماتا، شارك شخصياً في مهرجان الدفن، رغب. فهم الموضوع جيداً، الرجل صريح، واضح الكلام، لم يمهله وقتاً يفسر كلامه.. واصل كلامه:

- لا تقول ماتا.

زاد الغموض تكثيفاً، وحل يزداد، شعر.. زادت نبضات قلبه، واصل الرجل كلامه:

- لا تقل ماتا.. هما ليسا بوالديك.. !!

* * *

في محجر صحي خاص وجد نفسه، لم تنفعه خدماته الممتازة لحكومة قعدت بسرعة البرق، حصينة، مسورة بحشود حرّاس أصحاب خبرة تنفيذية، مستعدون، بالروح بالدم التضحية، رتبته العسكرية صارت علبة معدنية في مزبلة، صدئة لا تنفع، غرفة لا

تبدو لائقة به، فراش عادي، عفن، رائحة بول متخثر يتصاعد منه، عليه انتظار معول القدر، عميقاً سيضرب، يموت كحمار في مزبلة، كلب يحتضر في قفص، إطعامه منتظم، مبرمج، تخصيصات محددة، كمّاً ونوعاً، عليل غامض المرض، يأتيه شخص يومياً، صباحاً يأتي، مساءاً يأتي، يحقنه بمصل مريح ينوّم الحمار، شخص صارم، لا يحبذ الكلام، لا يسأل، لا يسمح إبداء رغباته، سواء أكان متعلقاً بمرضه، أو رغبة في شيء ما..!!

* * *

ذات يوم قرر..

يكاشفه الكلام، وجد لسانه لا يستجمع الكلمات، أشار بيديه، تدخل الرجل، مسك يديه، ربطهما بالسرير، فاغر الفم، ينظر إلى عينين شرستين، قضى الليل كلّه مشدود الوثاق، لم يعد يعرف كيف نام، صفعة متوسطة المدى أنهضته، عرف. بال على نفسه.. !!

* * *

في اليوم التالي دخل الرجل المربوع، صارم النظرات، أبتسم هذه المرة، مد كفيه، فرك وجنتيه، تشجع يتكلم.. قال:

- ربطتني أمس.

أجابه بود:

- كي تبول على نفسك.

بارح الغرفة طالقاً ضحكة متوسطة الصوت، شعر، خجل

كبير ينخله، رغب.. الموت في تلك اللحظة، رغب لو مهمته العسكرية جبهوية، ربما وجد الحرب سلوى دائمة له، غريب في عالم غريب، تطبع، بتصرفات لا إنسانية، عزا ذلك لقسوته، لوحشيته، لغابيته، عائدة من غير شك، لعزلته الدائمة، فقدانه المبكر لوالديه، وحيداً فريداً يعيش، وجد، اللذان ربيانه، ليسا والديه، ياترى من هما، لم ربيانه صغيرا، تناقش قبلما يعرف كل شيء، كلام والد (وداد) نار استشرت شظاياها في بيادر أغواره، عاد من الزيارة، شحن نفسه بقلق وشكوك، رغب. يوازن الأمور، رغب.. يرسو على بر شاطئ بعيد تكوينه البشري، وجد الليل يأخذه، سفرات لا تنتهي، يلقيه في بقع جحيمية، فتح كتاب حياته، وجد أيامه سعيدة، عرف، في سؤال لاحق، في زيارة تالية، لم يتأخر والد (وداد) من الإجابة عن سؤاله، أستقبله هذه المرة بترحيب فيه من الدفء النزر اليسير:

- أرجو أنك فهمت القضية.

- فهمت في تلك الليلة.

- لم أبغ جرح مشاعرك.

- مكاشفة صريحة بين إنسانين بينهما زاد وملح.

- تلك أصول معروفة، أبن أخي حجز (وداد) منذ ولادتها.

- ما في ذهنك انتهى بالنسبة لي في تلك الليلة.

- أطرح موضوعك مهما يكن، ما بوسعي إسعافك.

- أنا ولد من.. !!

قام والد (وداد)، مشى إلى النافذة، أزاح الستائر جانباً، فتح

ظلفي النافذة، شعر. تغيير مفاجئ لمناخ الغرفة، لهفة عارمة، رغبة دفعته، تشجع، عاد، جلس لصقه، تلاقت العيون، عيون سألت، عيون تحاول الفرار، ترغب حدوث عاصفة غبار لتغليف كل شيء بالغموض، صوت شهيقين، زفيرين، ضربات قلبين، يحصل انسجام أحياناً، قلب شاب منفعل، رغب.. يعرف هو من، (ولد من)، وقلب رجل يعرف كل شيء، يبدو عليه تعب الموقعة، لا يرغب سكب قيحاً زمنياً متراكماً، تخلّص الشاب من سوّار اللهفة، مزق سربال الغشاوة المتخثرة، أعاد سؤاله بشيء من التوسل، بحفنة دموع تفر، شيء من الموت يحوم حوله:

ـ أنا ولد من.. !!

تململ الرجل مقترباً منه، أنامل مرتجفة بدأت تداعب وجنتيه، تبللت كفا الرجل، أزاح الدمع الهابط، هز رأس الولد المتهالك. . تمتم:

ـ أنت ولدي.. !!

سحب الولد نفسه، قام، توجه إلى النافذة، تجمدت أوصاله، رأى (وداد) مع شاب في أرجوحة المنزل، منسجمان، يتحاوران، يتضاحكان، لم يشعر بتقدم والد (وداد) منه.. أفاق على كلامه:

ـ ذلك (عمّار) ولد عمها.

استدار.. قال:

ـ ليس هذا ما جئت من أجله.

ـ أنت متعب ياولدي.

ـ أنا من.. ولد من.. !! (قالها بشيء من التوسل).

- قلت لك.

- لم تقل الحقيقة يا(......).

قاطعه الرجل:

- كنت ولدي لفترة من الزمن.. !!

* * *

في تلك الليلة عرف الحقيقة كلّها، صارحه والد (وداد) بكل شيء، عرف منه، لا أب له، لا أم له، أبن عائلة غير موجودة على جغرافية الأرض، وربما بين أروقة الزمن أيضاً، لابد أن رجلاً ما قذفه ذات شهوة حرام في رحم امرأة عاقة، لابد تلك المرأة عانت المخاض، قذفته إلى سفينة الشقاء ليواجه أعاصير الحياة بمجداف اليتم، من هو يا ترى قذفه في رحم المجهول، من هي يا ترى قاذفته خارج رحم الوجود، سؤال شغله، أخذه في بحثه إلى المنافي، إلى حفلات حزن لا تنتهي، لم يعرف من الرجل سوى بداية لعبة الكلمات المتشابكة، بداية أهلته يعيش حياة مستقرة، وجده الرجل - كما أسرّ له سيرته - ذات صباح مرمي في بقعة عشبية، كلب يقعي قريباً منه، ولد صغير رمته أيدي قذرة يواجه حياة شائكة، أخذه الرجل إلى منزله، حدثت مشاحنات بينه وبين زوجته، (زعلت) الخاتون، مضت إلى أهلها، الرجل رعاه، تدخلن نساء الزقاق، أعدن المياه إلى مجاريها بين الزوجين المتخاصمين، في البدء، المرأة عاملته بشيء من اللامبالاة، يصرخ، هي سعيدة بصراخه، تمنت هلاكه، التخلص من طفل ضال بلا أهل، قاله

الرجل بلا تردد ، بيد أن القلوب القاسية تأتيها فرص ذهبية ، ترتد بعضها عن ديدنها ، تبدأ النبض بما تشتهي الناس، ومع مرور الأيام استعادت حساباتها (الأمومية)، اتضحت على قسماتها مناشير الندم، بدأت تطيل النظر في كائن غير مذنب، وجدته ولداً يستحق الرعاية ، لم تعر أذناً صاغية لنساء أسمعنها كلاماً جارحاً :

- تربين سفاحاً في قصرك.. !!

تلقت تشجيعاً من الرجل، دعماً مغرياً من طفل بدأ يتغير مذ شعر ببوادر أمومة تحاك حوله، بدأ يصمت.. !!

* * *

الرجل عاد ذات مساء مغموماً ، عيناه تنز دموع واضحة ، أقترب منها.. همس في أذنها :

- وجدت من يكفله.

لم تعرف ماذا يتوجب عليها القيام به، ماذا تقول. . أردف الرجل:

- صاحبي يريده.

تم نقل ملكية الطفل من بيت لبيت، صار الولد يكبر برخاء تام.. !!

* * *

(ولد من).. السنوات تهرم، صار ضابطاً ، الأب الذي تبناه مات، الأم التي ربته ماتت، ليس هناك من يعرف أصله، مجرد طفل مرمي في بقعة عشبية وجده رجل ذات صباح، المرأة سمته (مالح)

تيمناً لأسم شقيقها الذي مات بحادث سير في العاصمة (بغداد)، قريه ينتظر كلب جائع، بيت كبير ترعرع فيه، ليس بوسعه المضي أكثر من ذلك، تلك هي التواريخ التي لا يمكن محوها من الذاكرة، تبقى الأشياء الدقيقة، تفاصيل عابرة غير ذي أهمية، مرت، بعضها اختفت، بعضها تؤججها مواقف مماثلة، سؤال واحد ظلّ شاغلاً للبال، لم رموه يوم ولادته، أو بعد ولادته بأيام، لم رمته أمه، هل كان أبن (زنا)، أرادت أمّه التخلص من خطيئتها، تفسير بدا أكثر رجحاناً للعقل، يتطابق مع استشراء تلك الحالات الشاذة في البلدة، صبيان كثر رموهم، أخذتهم الحكومة إلى دار إيواء الأيتام، هناك يكبرون، يغدون أبناء الحكومة، يؤدون مهمات فوق العادة، فرح قليلاً، لأنه وقع بين أيدي رحيمة، آوته وربته بشكل لائق، خلاف ما كان يجري لكل طفل يجدوه في الشوارع، يأخذوه إلى متاهات تنقطع أخباره نهائياً عن الدنيا، لم يجد سوى الجد، المثابرة، طريق يقوده نحو حلمه الكبير، ليس من المعقول المضي قدماً في حياة مجهولة، من غير ترك أثراً ينتفع منه الناس، ظلّ التصور قائماً، والداه يعيشان قريبان منه، ربما يريانه يومياً، دوافع غامضة تجعل التعارف بينهم مستحيلاً، سمع، عائلات كثيرة باعت أطفالها لغرباء لا ينجبون، باعوهم جرّاء قحط كبير عصف بالعباد، بينما هو، حالته لم تكن مماثلة لهم، وجده والد (وداد) مرمياً للتو في دائرة عشبية، كاد كلب ضال يفترسه، لولا وصوله في اللحظة المناسبة.

ثابر في كليّته، عرف.. الرجل الذي تبناه رسمياً، وراء قبوله في

الكلية العسكرية، تخرج بدرجة امتياز، نقل إلى معسكر لتدريب الجنود الجدد، كونه حضا بانضباط عسكري تام، لعب والده بالتبني دوراً. مستغلاً مكانته الاجتماعية في تقرير مصيره..!!

* * *

وجد في محجره، ذكرياته القديمة مادة خصبة لقتل سموم سأمه، رغب.. يطلب دفتراً وقلماً، يكتب مشاعره اليومية، طرح رغبته على طبيبه المعالج:

- أريد شيئاً يسلّيني.

أجابه الطبيب ضاحكاً:

- تسلّى ببولك.

شعر.. طلقة ساخنة خرقت قلبه، تراجع الطبيب بصورة لائقة، أبدى عطفاً مفاجئاً.. قال:

- لا تأخذ مزاحي على محمل الجد، يحتاج العليل إلى مباغتة من حيث لا يتوقع.

- أنت تمنحني فرص جديدة للحياة يادكتور.

- لا شيء يسلّيك في وحدتك القاتلة غير امرأة دافئة.

- لو تكرمت علي بدفترٍ وقلم.

- حتماً لديك كلمات غزل أم أنك شاعر يا حضرة النقيب.

- أريد دفتراً وقلماً، أحياناً أشعر بحاجة ملحة لتدوين همومي.

- حسناً في المرة القادمة سأجلب معي ما تريد.. !!

* * *

في ذلك الدفتر، بدأ يكتب رغباته القديمة، مجرد رؤوس أقلام يكتبها من غير كتابة سنوات حدوثها، سرعان ما بدأت بوادر أولى في كتابة قصائد شعرية متعثرة، ندم لأنه ترك تلك الموهبة التي أشرقت في سوح شبابه، قرأ كثيراً من (النزاريات)، تمتم:

- المترفون والمواهب أضداد..!!

توقفت عجلة الشعر عند كلمات مرتبكة، لا حس موسيقى يتعلق بأهداب الحروف، تعذر على قلمه المشي في غابات شائكة.

وجد (وداد) التي تنازل عنها، ينبوعاً متدفقاً لكلمات خارقة، أنسته على أقل تقدير، حالته المرضية الغامضة، سهر الليل كثيراً، مشاهد ودودة تولد، يقتنصها، يميتها على بياض ورق يتسع، هواجس أنيسة تتشكل، قلمه جف، وجد أقلام جديدة تأتيه، يرحل القلم، ينزف عصارة روحه، يغادر، كل شيء يحترق من أجل غاية سامية، لا أحد يبقى سوى شبحه، مرتسماً في مكان ما، قلم يأتي، قلم يرحل، وحده دفتر كوابيسه ظلّ مرافقاً فوق العادة، خاف عليه خوف أم تخاف على وليدها، راح يقرأ بإعجاب كل ما يسطره، وجد نفسه كاتباً يفوق كتّاب جيله، شعور نرجسي، يعرف. . مجاملة ذاتية تبغي حرقه، كل الكتّاب في خطواتهم الأولى تنتابهم مشاعر هدّامة، منهم من يرتدي لباس الغرور، يركب حصان الطيش، يسوق نفسه، بمركبة الهلاك نحو تماسيح النسيان، منهم من يرتدي لباس التواضع، لا يصغي لصوت الشيطان داخله، يمشي في طرق غير مضيئة خشية مطر الحسد، يخترق بصبره سوح المستقبل العنيد.

صار الدفتر قلبه، رئته، خاف عليه من الضياع، خبأه داخل أسماله نهاراً، في الليل يفتحه، يكتب عليه ما تمليه ذاكرته..!!

* * *

مرّة سأله ذلك الجندي الصارم:

- أنت تسهر كثيراً.

- أنا أسهر.

- عيناك تفضحانك.

- أشعر بضيق هنا، لدي رغبة بعدم مواصلة الحياة.

صفعه الجندي، قلبه على فراشه، ربط يديه وقدميه إلى السرير بحبل محكم.

في اليوم التالي قال له الطبيب:

- لا يليق بك الانتحار.

- أنا أفكر بالانتحار.

- أبحث ما في نفسك للحارس.

- هذا ليس صحيحاً أيها الطبيب..!!

* * *

في تلك الليلة ضاعت عليه قصائد كثيرة تزاحمت على طاولة ذهنه، ذلك الوثاق حرمه من تدوينها، حاول في اليوم التالي أن يستذكر شيئاً منها، وجد نفسه غارقاً في تأمل فاشل، فما يرحل ليس بوسعنا إعادته، ما نكتبه عن شيء مؤجل بطبيعة الحال يختلف عمّا كان يجب تدوينه لحظتها، الحرارة لم تعد مثلما

تولد، ما يرحل حرارته فطرية، ما نستدرجه حرارته مبتكرة، خالية من شظايا اللذة.

وجد أشياء أخرى تهبط بوضوح على مسرح ذاكرته، تلك هي منافع العزلة، عرف.. المرء يتوجب أن يعتزل في فترات معينة، كي يختبر أو يوزن حياته، يقارن ما بين الذي رحل والذي يلوح في أفق خياله، في العزلة تتكشف الحياة كاملة، يتواجد المستقبل بوضوح، يمكن للمرء تشذيب هندامه الحياتي، يختار من جديد ما يناسبه من أسمال تليق بما هو قادم، ثمة حالات تحضره، غالباً ما حاول تلافي التلاقي معها، وجدها أشياء عابرة حدثت في أزمنة ما، في محاولة أخيرة، رغب قبرها نهائياً، إخراجها من متاريس ذاكرته، قبل دفنها في صفحات من دفتره، كان يمتلك الوقت والعزلة، منحها بعض من فائض وقته، وقطرات كافية من مداد قلمه.. !!



من تلك المواقف..

سكنه السأم ذات أصيل، كان قد انتهى من غدائه داخل (بهو الضبّاط)، رغب.. يخرج يتمشى، كان المشي يشعره بزهو غير طبيعي، يمنحه راحة تامة، يوم كان يقرأ الكتب الشعرية قراءة نهمة، توصل إلى معلومة شخصية، أنّ الشعر والمشي عافيتان يرقيّان المرء إلى حالة الحلم الخالد، المشي رياضة غير مكلفة، لا يدع الجسد يسمن، ينتفخ، يندلق الكرش مثل بالون مترهل، يتهدل كأحشاء امرأة حامل في شهرها الأخير، كان هناك جدولاً

مائياً متعرجاً، يشرخ المعسكر من شماله إلى جنوبه إلى نصفين غير متساويين، جهة الشرق يابسة، أتخذ مسرحاً لتدريب الجنود الجدد، وجهة غربية، غابات بساتين متوحشة، ترتمي أعشاب وأشواك غير مهذبة، تتشابك على ضفتيه.

كان يمشي دائماً إلى هناك، الرائحة الحريفة للنباتات الجرفية تزكمه، ترقيه إلى نشوة مسكرة، لمح في تلك الجولة، جندياً يخلع ملابسه، راقبه عن كثب، دخل الجندي الجدول، خرج مبللاً، ارتدى أسماله، بدأ يصلي على التراب، باغته لحظة بدأ تسليماته، شعر الجندي بشيء من الارتباك، وقف لا يعرف ماذا يقول.. سمع:

- ماذا عملت كي تستحم وتؤخر صلاتك إلى هذا الوقت.
- كنت نائماً سيدي، داهمني الشيطان الرجيم.
- داهمك الشيطان أم فعلت منكراً مع حيوان.
- أستغفر الله سيدي.. أنت تتهمني باطلاً.

كلمة (باطلاً) تحول بغتة إلى صاروخ معادي دك رأسه، أزدرد ريقه.. صاح فيه:

- أنبطح..!!

تمدد الجندي، شعر، حذاء عسكري ثقيل مغبر على رأسه، رغب.. يتكلم، رغب.. يفعل شيئاً، لم يمهله الضابط فرصة كلام.. باغته:

- أزحف..!!

في ذلك الأصيل، حتى مغرب الشمس، تسلى الضابط (مالح)

بجندي مستجد، مرغله في الطين، راح يدخله الجدول المائي، يخرجه، يلقيه مرة تلو مرة في التراب، قبل الغروب بدقائق أمر الحلاّق حلق رأسه (نمرة صفر)، ألقاه في السجن ثلاثة أيام بسبب كلمة عشوائية خرجت من فمه.. !!

* * *

ظلّ يواصل تعذيب الجندي، كثير الصلاة، المثابر في عبادته.

ذات يوم أمره شرب قدح ماء، رفض الجندي، صفعه، لم يقر له بال، قيل له صائم، ثارت ثائرته، أجبره على مجموعة أشغال شاقة، الجندي واصل تلبية طلباته، لا يتذمر، لا يتشكي، الضابط رصد غمغمة غريبة، ذبذبات لاسلكي صدرت من بين شفتيه.. صاح فيه:

- ياكلب ماذا تقول.
- لم أقل شيئاً سيدي.
- أنت تشتمني.
- أنا أشتمك، معاذ الله ياسيدي.

ساقه إلى السجن، بقى الجندي سبعة أيام في غرفة خانقة، لم يكتف بذلك، بل واصل الضابط غاراته الليلية على سجنه، تعذيبه يشعره بموجات راحة، مارس حياة (مازوخية) معه، لم يعرف سبب نهوض فاصل العداء فيه، وجد نفسه منجذباً لرغبة تلح، كلّما يجد الجندي أمامه، كثيرون هم الجنود، لكن ليس فيهم وجه مثير للغضب، رغم أنهم يمارسون حياتهم وفق ما يليق لأمزجتهم،

أصطاده يسبح في جدول الماء غمرته الراحة في تلقينه درساً تعذيبياً طال فصوله، وجده يتعبد ليل نهار، يصوم كل أثنين وخميس، جندي كأنه خلق ضحية له.. !!

* * *

ذات أصيل أخرجه من سجنه، لم يكمل أيامه السبعة، واهناً ضعيف البصر، أوقفه وفحصه، مد عصا عسكرية نحوه، بمقدمة العصا رفع ذقنه.. قال له:

- اذهب إلى النهر، تسبح، تحلق ذقنك، ترجع خلال نصف ساعة.

هرول الجندي نحو النهر، رغم البرودة التي نشرت تهاليل الخريف، ألقى بنفسه في الجدول المائي الذي استحال ماءه غرينياً، عاد مثلما أراد الضابط، وقف يلهث. . قال له الضابط:

- أنت تخالف الأوامر العسكرية.

- أنا.. !!

- تسهر الليل لتنظيم الجنود في خلية سرّية.

- أنا.. !!

- أنت تعرف مدى خطورة عملك.

- أنا.. !!

- هل أنت من (حزب ديني) مرتبط بالعدو.

- أنا.. !!

- تمارس نفس طقوسهم.

لم يفه الجندي بشيء، لمح الضابط نهرين صادقين من الدموع يهبطان من عينيه، ظلّ ناحتاً عينيه فيه، قبل أن يأمره:

- إن سهرت الليل مرة أخرى، سأسوقك إلى المشنقة.. !!

* * *

ذلك الجندي..

رؤيته يشعره بكابوسٍ خانق، يشعره برغبة كبيرة تأتي بلا استئذان، رغبة التدمير والعبث، ريح فاسدة تهب، من مكان ما من أعماقه، ترغب تدميره، تأخذه في تجوال دائم، كلّما مشى تحت تأثير صراخ جوفه يباغته الجندي المستجد، قدر مكتوب عليه إطاعته، ذلك الجندي جاء مع كوكبة شباب، لأداء الخدمة الإلزامية، كرهه لحظة وجده بطيء الحركة، ثقيل العمل، يسبح، يصلي، دائماً يراه فارشاً سجادة صلاته، في غير أوان الصلاة، فسّر ذلك عسكرياً، تهرب واضح من التدريب، ثار غضبه، من تلك اللحظة شيء ما نبت في رأسه وراح يشده لتعذيبه.

تفاجأ ذات ظهيرة..

مجموعة جنود يرافقونه، ضبطهم يؤدون الصلاة جماعة، قادهم إلى الآمر، قام الأخير بحلاقة رؤوسهم(نمرة صفر) سجنهم، قدمّ الجنود الخمسة التماساً لطلب العفو، حلفوا (بأعراضهم وشرف أمهاتهم) بعدم تكرار فعلتهم ثانية، تم إخراجهم بعد توبيخ عنيف، وحرمانهم من أجازتهم الأسبوعية، من يومها ترك الشبّان الخمسة الصلاة خلف الجندي المتدين.

من جديد أعاده لوحدته، وجده يملك سلاحاً فتاكاً، صبره

الطويل بدأ يقلقه، يصب رصاص عذابه عليه، وجده لا ينثلم، لم يرغب طرح سؤالاً عن سبب هذا العداء المتواصل، لابد وضع في باله لوحة اليقين (المؤمن مبتلى)، كلّما يشدد على تعذيبه، يرد بفعل صامت، متحدياً يمارس طقوسه بلا تردد، يراه، ضحك في سره، أكتشف، دمه يهيج وهو ينفذ أوامره التعذيبية، يقذفه إلى قمة العماء، إلى مستنقع الغضب.. !!

* * *

رغب الجندي معرفة سر ملاحقة الضابط له. . نقل مراسله رغبة الجندي:

- سيدي جاء يطلب مني التدخل لتخفيف العناء عنه، يعني مراعاة مشاعره.

- ماذا قلت له.

- قلت سيدي يحب (السمك المسكوف) .

- ماذا كان رد فعله.

- غضب، مثل جبل أرتجف، صاح:أتريدني ارشيه يا عزيزي.

- كلب يريد أن (يخيس) هنا.

- قلت: لا.. ليست رشوة.. يعني تشتري سمكة، نحن نشويها في فرن الصمون.

في تلك الليلة تم استدعاءه، وجد نفسه أمامه من جديد.. قال له:

- غداً ينزل الجنود، استبقيتك حارساً على قاعتكم.

- هذا أفضل سيدي.

ـ هل ترغب زيارة أهلك.

ـ ذلك متوقف على أوامرك يا سيدي.

مادامت رغبتك فاترة، ستبقى في المعسكر (حرس قاعة).. !!

* * *

شيء آخر..

ظلّ حاضراً، مقلقاً، سكن باله، حاول ينأى بنفسه عن سطوته، قلبه المبتلى ينبض كلّما يهل الضوء، (وداد) فتاة ناعمة، دائمة الحركة، بشوشة، لعبت معه زمناً، كانا يختليان داخل جنينتي المنزلين، بالتناوب تتزاور العائلتان، كما درجت في قائمة الزيارات المتبادلة، هي تركض، هو يركض وراءها، هو يركض هي تركض وراءه، يتلاحمان، يتماسكان، أشياء حارّة تنهض في أغواره، وعيه لم يكاشفه تلك الالتهابات العاطفية المتقدمة، إلاّ في وقت متأخر، تلك هي علّة أصحاب النزعات التدميرية.

كل عيد، وعبر سنوات طويلة، كانا يلتقيان، يتصافحان، يتبادلان قبل بريئة، تحت أنظار الوالدين والأمّين، قبل ناعمة، لا غبار عليها، يفرحان بمقدمه، يحزنان حين يسدل العيد ستارته.

كانا يخرجان، وسط الناس، يدها في يده، ينعمان براحة بريئة، فرح كبير يتقاسمانه، يذهبان معاً إلى المدرسة، يجلسان على رحلة واحدة، يتدارسان، كبرا معاً.

الخجل فرض بوادره، صنع ستارة حجزت أهواء القلبين، (وداد) لم تعد تلك الـ(وداد)، لم تعد تخرج لاستقباله، ليالي الزيارات، كان يرافق العائلة، هواجسه تسبقه، فجأة ماتت

الهواجس البريئة، تلك هي المقادير الإلهية وفسيفساء الوجود.

(وداد) لم تعد تجلس جنبه، وشاح استحياء يعلن عن معالم غريبة، غيّر ملامح طفولتها، مثل إناء شفاف، لامع، قابل للكسر تبدو، شيء غير طبيعي، يتحسسه، قد أرتكب حماقة ما، كلام غير لائق أنفلت ذات شرود من لسانه، قد أزعجها، لا.. لا.. أغواره تتهدت بحسرة من نار، كل كلامه معها، كل نظراته، غلّفها بصراحة طفولة غير مشككة، مضى أكثر مما فكر، قد لعبت أمها دور المصلحة الاجتماعية، أبعدتها من مخالب فتى بدأ يشعر بنمو ذكورته، ربما الأب نصحها، كوننا كبرنا، كل شيء وارد، ممكن، عالم لا يستقر، يتغير مثل الريح، رغب. يسأل، رغب.. يعرف، رغب.. يميت مخاوفه، سر واضح، مرئي، عقله لا يستوعب، غير قادر على قراءة الأشياء المتعلقة بالقلب، بالرغبة، بالشهيق، بالزفير، سواد يلقم عينيه، الألسن تتحرك، العيون تلتهم، وحده يسكن عالم غامض، تغير هائل حصل في تركيبة العالم، جهل. يدرك كنهه، يجلس قبالتها، لم تعد تجره من يديه، تهرب به إلى قلب الفرح، داخل جنينة المنزل، جالس يرنو بقلق، بلهفة حارقة، لم تعد نظراته تشبه نظراته السابقة، قلبه يضطرب، صدره يعلو علو الفضاء، يهبط إلى قعر بحار مظلمة، رغبة واحدة تسكنه، ليست جديدة، يريدها تدنو كما كانت تفعل، يريدها كما كانت تسحبه من غير خوف، ينهض معها، يندفع إلى تشعبات حديقة البراءة، هكذا كانت تنقضي ساعات المرح كدقائق، يعود، طائراً يحلق في بياض القمر، على فراشه

يراقب حدائق تنمو، يغفو، يجني من بستان الليل سلال أحلام ناعمة، مضيئة، عالم جميل عاشه، أخذه في نزهة نشوان، أرجعه سكران.. !!

* * *

الآن أكتشف الأشياء، في وقت لم يعد هو ذات أهمية، كائن فائض عن الوجود، ربما خطأ، منبوذ، لا أحد يصارحه بما يستوطنه من علّة تتفاقم، شبع أدوية، ملّ العزلة، رغب. يموت، رغم كرهه الموت باكراً، أمنية كتبها في لوحة أحلامه:

- لا أرغب الموت باكراً تلك هي أمنيتي العظيمة.. !!

أضاع (وداد)، لم تعد الحياة كما كانت مهمة بالنسبة له، ربما (وداد) تعلم أصله (الشارعي) لذلك لم تعترض، لم تشهر بطاقة الرفض بوجهه، لم تفرض رغبتها العاطفية على أهلها، على أمها كما يفعلن فتيات الوقت.

(وداد) اختارت مهنة التعليم. قالت له ذات مرة:

ـ أحب التعليم، مهنة شريفة، مقدسة، أعشق التعامل مع الطفولة دائماً.. !!

اختارت ما يناسبها، عكس رغبته العنيفة، شعر منذ شب بميلان جارف نحو التفرد، تعشعش فيه رغبة القيادة، ربما خصاله، بوادر ذاتية، أخذها من شوارع الأبوّة بالتبني، رجل تاجر، لا يجيد فن حساب نبضات القلوب، رفّات الأجفان، بل ماهر هو في حساب المال، امرأة صارمة، نظراتها تحفر جبال الأسرار، لا

تتكلم كثيراً، كلماتها جمل مفيدة، خبيرة حياة، تمنى لو حصل تلك المعلومات من قبل، ربما كان الآن في مكان آخر، ربما لم يكن مريضاً بهذا الوباء النادر، سرحت بصيرته، بيداء ذاكرة ملغومة بموسوعات متنوعة، جلا غبار التعب، ولج متحف خيال متعافي، ماضيه علاج نافع، قتل ديدان هلوسات غربية، تضج، تميت عينيه، أنشغل بتدوين ما يحضره، مواقف، رغبات، مشاهد، هواجس، زمن ليس ببعيد سكنه، أقحم فيه وابل مسرات أثمرت مطر حسرات.. !!

* * *

لم يعد يرغب معرفة تاريخه السرّي، أقتنع بما هو عليه، أبن كائنين لسبب لم يعد يغير في الموضوع الكوني شيئاً، خريطة عائلة تشرذمت، تفرعت إلى متاهات لسبب ما، ثمة حالة غريبة جعلت سفينة العائلة تبحر في محيط الكون الشرس بلا ربّان، تحطمت لسبب ما، سقط هو في مركب اليتم، لم يعد ينفع مصير الأب والأم، قدّم تشكراته الدائمة، قدر جميل أستعطفه، أدخله برج سعادة رغم حالته الشاذة ما تزال تنعمه بدفء وسرور، كل قطار سينتهي في محطة ما، عليه أن يكون، قرار لا يقبل النقض، وضعه نصب عينيه، أنشغل بأموره العسكرية، لم يعد هناك من يستقبله، يذهب إلى العاصمة بشكل متوصل، يقطن في فندق يليق به، يقضي أجازاته الدورية، يتجول في مكتبات (السعدون)، يتصفح الكتب، يتناول طعامه في مطعم، لا يرتاد مطعماً واحداً،

يبدل المطاعم ما بين غداء وغداء، ما بين غداء وعشاء، يمشي، يحلم، في شوارع العاصمة، كائناً بلا أبوين.. !!

* * *

في ظهيرة ممطرة، شبع تجوالاً، قرقعت معدة السماء، قيء كثير تواصل، دلقت الغيوم ما في جوفها من سوائل متراكمة، وجد مظلّة وقوف الحافلات تزدحم بالناس، تردد، تأنف حشر نفسه بين ناس مخاليط بشرية، نساء، طالبات، طلاّب، رجال، مستطرقون، عسكر، صوت واهن ناداه، لم يعر الصوت المنادي أذناً صاغية، كان واضحاً رغم وشيش الماء، وصرير إطارات المركبات المارقة، غريب، ليس لديه أحد في هذا العالم، تفاجأ، يد قوية تمسكه، وجد رجلاً أسمر السحنة يقصده، سحبه، مشى طائعاً معه، أدخله مطعم كبير، أجلسه الرجل جنبه، طلب له الغداء، رفض يتناول شيئاً.. قال:

- تناولت غداءي قبل المطر بقليل في (نجمة السعدون)..!!

أتوا بقدح شاي، وضعوه على الطاولة، رشف، تدارس الجو الغاضب. قال صاحب المطعم:

- يبدو أنك غريب عن العاصمة.

- نعم ياعم.

- من ترددك عرفتك، الغرباء يبدون ضعفهم في مثل هذه الحالات.

- وجدت الناس تتدافع تحت المظلّة.

- هل أنت طالب كليّة.

- أنا ضابط..!!

رمقه الرجل الأسمر، نظرة مباغتة نثرت جملة أسئلة، قرأ تفاصيل قسوة كثيفة، حياة غير مستقرة، طال الصمت قبل أن يتكلم:

- لا يبدو عليك ذلك.

- هل تريد هويتي.

- كلاّ.. الضبّاط يأتون من القرى، ناس قساة، متعبون.

- أنا بلا عائلة.

- ماذا.. أنت تمزح يا حضرة الضابط.

- أنا صادق فيما أقول.

- كيف تواجه الحياة.

- هنا في العاصمة، هناك في المعسكر.

- أنا أيضاً أعيش بلا عائلة.

- أنت تمزح.

- هنا في المطعم أقضي عمري كلّه.

وجد نفسه أسير حديث لا ينتهي، يواصل المطر الصفع بكف أبيض جادة الشارع، قسوة مموسقة تنثرها إطارات تمرق، منبهات تنطلق، أنتبه، الذين تزاحموا، فم مجهول فتح فكيه وأبتلعهم في لحظة حديث، لم يعد أحدهم يقف تحت المظلّة، لم يعرف كيف تبخروا، أستأذن منسحباً:

- لم يعد لدي الوقت الكافي، لدي مشاغل كثيرة.

وقف الرجل الأسمر، حيّاه بحرارة.. قال له:

- زرنا كلّما تأتي العاصمة.

- أعدك بذلك.. !!

* * *

بعد مرور ستة أشهر على تلك الجلسة، كان في العاصمة، تذكر وعده، تردد قبل اتخاذ قراره، ركب سيارة أجرة، أمام المطعم نزل، سأل عن صاحب المطعم، أستغرب أحد الندل، ندم، لأنه لم يطلب أسم الرجل الأسمر في جلسته السابقة..

قال:

- قبل ستة أشهر جلست معه هنا.

- من تقصد أستاذ.. أنا حديث العهد هنا.

- من هو صاحب المطعم.

- سيأتي بعد الصلاة.

- حسناً سأنتظره.

وقف قرب المطعم، يرمق المركبات المارقة، يحدث نفسه، رغب.. ينسحب، رغب.. يؤجل رغبته لوقت آخر، لم يخالجه شك، ظلّ متيقناً، الرجل الأسمر ما زال صاحب المطعم، سيأتي، سيفرح كثيراً بمجيئه، أخّر غداءه، رغب. يشاركه الغداء هذه المرة، حتماً الغداء والحوار يمنحان الإنسان راحة استثنائية، يبقى الجسد جائعاً، الكلمات تطحن الطعام، تلقيه خارج حسابات الشبع، الطعام سيفتح شهية الكلام.

ثقيلة هي دقائق الانتظار، قلبه ينبض بشكل مختلف، شعر

بتعب أوّل، تعب غير وارد، شعر.. ضيق مباغت، رمقه النادل، أقتنص بوادر انزعاج اتضحت على وقفته، هرول إليه.. قال:

- لم تقف هنا، تفضل بالجلوس، سوف يأتي.

رافقه بتثاقل، جلس على كرسي قرب طاولة الحساب، شرب قدح ماء صبّه النادل له، في تلك اللحظة، رنّ الهاتف، تحاور النادل مع الطرف الآخر، عيناه تنظران إليه، سمعه جيداً يقول لمحاوره:

- إستادي.. شخص غريب ينتظرك.

هز رأسه، وضع الحاكية، دنا منه.. قال:

- إستادي يريدك.

- أين.

- في البيت.

- في البيت.. !!

- أمرني مرافقتك.

- ألم يقل شيئاً، ألم يسأل.

- كلاّ.. (إستادي) رجل شهم.

انشرحت أساريره، رافق النادل، بعدما أوقف مركبة خصوصية، فتح الباب الأمامي، جلس هو وراءه، انطلقت المركبة بين زحمة المركبات، نصف ساعة تقريباً الطريق إلى حلمه، حشد ما عنده من كلام مفيد، توقفت المركبة، نزلا، طرق النادل باباً كبيراً لمنزل فخم، خرجت فتاة، اختلطت عليه الأمور، لم يعد يمتلك وعياً، تناثر ما حشد من كلام مفيد، ارتبك، أعاد كلام الرجل الأسمر، يوم قال له:

ـ أنا أيضاً أعيش بلا عائلة.

ربما رغب.. يشعره، في الحياة ناس كثيرين بلا أحد، هي خبرة حكيم في إسعاف الآخرين، حقنهم بموجبات التحدي في حياة محيط شخوصها كواسج وأسماك، رغم الحرمان صامدون، يمارسون حيواتهم كالآخرين، يا ترى من تكون هذه الفتاة الجميلة، سؤال سكن ذهنه، ترتدي ثوباً (ماكسي)، الموضة المتصاعدة لفتيات المرحلة، (ماكسي) أحمر، رغبة مثالية، الذوق الملائم، لمزاج الغالبية العظمى لفتيات العهد السبعيني من القرن العشرين، تحديداً المراهقات منهن، وقفت الفتاة تستطلع من طارق الباب، لم تعرف النادل طبعاً، النادل قال ذلك له، ربما هو لم ير الفتاة من قبل، الفتاة استفسرت منه، رغبت. . تعرف من هو القادم إليهم، ماذا يريد من أبيها، رمقته الفتاة مرات، كانت تنظر إلى النادل وإليه، رغب.. يستوعب النتائج، لم جاء، ماذا يريد، النادل قرب الباب، الفتاة واقفة على بعد مترين من باب البيت، السائق يبحث عن موجة عاملة في الراديو بعدما أسكت آلة (التسجيل)، بعد رحلة غنائية صاخبة لكاسيت (كيولية) شردت الكثير من المناظر المغرية من عينيه.

انتهت المحاورة بين الفتاة والنادل، استدارت الفتاة، قبل أن تدخل إلى البيت، ألقت نظرة أخيرة، رافقتها بسمة ودودة، تلك البسمة أرعشت عروق جسده، رغب.. تلك اللحظة، أنها فعلاً بنت الرجل الأسمر، ربما ستعوضه خسارة (وداد)، وقف ذهنه عن المضي قدماً، خرج شاب يكبره بسنوات، لا تعدو عن خمس إلى ست سنين، فتح

الباب، وقف، تقدم قليلاً.. قال النادل:

- أستاذي العزيز هذا الأستاذ يريدك.

سمع كلام النادل، أستقبل نظرات الشاب، رمقه هو أيضاً بنظرات خجولة، ماذا يقول له، (فكّر في تلك اللحظة)، رغبته لقاء الرجل الأسمر، رغبة تشظت، ها هو يقف جاف اللسان أمام شاب سبقته فتاة، ربما استفهمت العيون، توصلت إلى قناعة تامة، أن الذي يجري محض اشتباه، لكنه تماسك نفسه، تعود على ذلك من تدريباته العسكرية، وصرامة طباعه، رغب.. يسأل عن أبيه، ذلك هو مطلبه، مدّ كفه، وجد كف الشاب سريعة الاستجابة. . طرح رغبته ماثلة من غير تردد:

- أريد أباك.

من حق الشاب أن يستغرب، وقف يستفهم:

- أبي أنا.

- نعم.

- ماذا تريد منه.

- هو يعرفني.

- يعرفك.

- نعم.

- هل أنت متأكد أن أبي يعرفك.

- كل المعرفة.

- لكن أبي ميت منذ عشرين عاماً.. !!

صاعقة كونية انهالت على رأسه، شعر.. دم جسده ضج، عالم

صار أسود، شعر.. وهن ترافقه غشاوة، خال الشاب يمزح، بدا من البسمة التي صرّح بها ثغره، لم يجد ما يقوله. أضاف الشاب:

- أبي ميت، هل تعرفه.

- أعتقد أنني وقعت في خطأ غير مقصود.

- ماذا تريد بالضبط.

- قبل ستة أشهر كنت في المطعم، استقبلني رجل أسمر.

- قبل ستة أشهر، آه.. أنك تعني (أبو سمرة).. !!

* * *

في الفندق ليلاً..

لم يجد دافعاً يخرجه، لم يجد رغبة في القراءة، جلس قرب (البلكونة) وجد منظر السيارات المارقة، مطرقة تواصل فلق رأسه، دخل إلى غرفته، تمدد على سريره، أجتر دقائق حوادث يومه، وصل إلى أهمها، رنّت في أذنيه كلمات الشاب الأخيرة:

- غادر (أبو سمرة) العاصمة يوم اشتريت مطعمه.. !!

* * *

على فراش المرض، في غرفة مستقلة، كشفت ذاكرته أوراق كثيرة، بدأت الأمور تتضح لديه، حكاية الرجل الأسمر، توصل إلى قناعة يقينية، الرجل التاجر الذي وجدوه على المزبلة قرب الوادي الكبير، كان أيضاً يكنونه (أبو سمرة)، صرف وقتاً طويلاً كي يلملم الملامح التائهة في ذاكرته، تذكر أنّه التقى

بصاحب المطعم مرة واحدة، في يوم ممطر، لم يدعه الخجل نحت ملامحه في باله، لكنه نحت ملامح الرجل التاجر الذي جاء إلى البلدة مع التجّار في ذاكرته البوليسية، أستعاد تلك التقارير السرّية، التي تراكمت على طاولته من شرطته ووشاته السرّيين، بدأ يزيح غبار الأيام بفرشاة عقل متحري محترف، وجد حفنة ذكريات تناثرت على شكل حكايات أسطورية، أكثر الجمل التي رددتها التقارير كانت تؤكد:

- كان (صيّاد خنازير).. !!

رآه شخصياً في البيوت الصفيحية، لم يبال بتواجده، كان مشغولاً بما يجري من على المسرح، يجلس (أبو سمرة) في الصف الأمامي، مكان الأثرياء، أصحاب الدفع الأكثر، يخرج رزم دنانير لم تمسها هواء، لم تدعكها أصابع خشنة، لم تطويها محفظات جلدية، ينثرها على أجساد الراقصات الغجريات.

فشل يستجمع قواه كي يجري مقارنة، مقاربة بين الملامحين، قد يكون هو ذلك الذي سحبه من تحت المطر، أدخله المطعم، شيء ما أنهضه من فراشه، توصل إلى قناعة تامة، صاحب المطعم (أبو سمرة) هو نفسه الرجل التاجر (أبو سمرة).. !!

* * *

وصله نبأ سار، أنبأه الجندي الحارس.. قال له:

- سيفرجون عنك بعد غد.

لم يوضح الجندي أكثر مما قال، خشي يفه بكلام يفسره

الجندي وفق مزاجه، يهيأ له مثلما أساء التفسير الذي ساقه إلى تكبيل معصميه، ربطه بالسرير ليلة كاملة، سكت.

في اليوم التالي، دخل عليه الطبيب، وجد عينيه تضجان بكلام مفضوح، قبل أن يستوضحه.. قال الطبيب:

- قريباً ستعالج وتعود إلى بيتك.

- أريد توضيحاً دكتور.

- جاء كتاب سحبك إلى العاصمة.

- أريد خاتمة هذه الرحلة.

- ستجد صحتك متعافية هناك.

لم يفهم لغز القضية، عالجه الدكتور، غادر الردهة، صرف ما بوسعه من وقت، وجد نفسه تائهاً في سديم متواصل، مثل كلب يلهث خلف بقعة سراب.. !!

* * *

كانت الساعة الثامنة ليلاً حين دخل عليه الجندي، يرافقه رجلين يرتديان بدلات بيضاء، تقدما منه، لم يتفوها بشيء، أنهضاه، قام أحدهم بقيادته نحو الخارج، أنهمك الآخر بلملمة أشياءه، تمكن من التوقف قليلاً، سمح له مرافقه يستدير، سادته راحة لحظة لمح الرجل الآخر يدس دفتره الشخصي في حقيبته، كان من الممكن أن يتكلم لو أهمل الآخر دفتره، أو ألقاه جانباً، لكن الآخر بدا كائناً واعياً، لا فضولياً، دقيقاً في عمله، لم يهمل ما كان يعود له من أشياء.

خارج الردهة وجد مركبة (الإسعاف الفوري) متأهبة لنقله، لم يرغب الكلام، عرف مسبقاً - وإن كان ذلك بشيء من الغموض - نقلته اللاحقة قريبة، لم يشعر بخوف أو ارتباك، ضابط يخضع لنوع خاص من العلاج، يعرف.. داءه نادر.

صعد إلى حوض المركبة، نام على السرير الخلفي، غلق الباب عليه، سارت المركبة، شعر. المسافة كبيرة، عرف.. رحلته القادمة ستكون باتجاه العاصمة، لم يشعر بأسى، غريب أينما يحط يشعر ذلك المكان موطنه، دائماً أقنع نفسه، أنه ابن العاصمة، مثلما تخضع المدن للعاصمة، كذلك كل إنسان بلا عائلة ينتمي أيضاً للمركز، لديه ذكريات كثيرة، زرعها في أماكن مختلفة، أضاع القسم العاطفي منها، أعتبرها هواجس شبابية غير مسئولة، عزا ذلك أيضاً لخجله، رغم إدراكه التام أنه كائن عنيد، يمتلك من القسوة ما يجعله الخوض في صحراء المتاعب، شق شرنقة المتاهات من غير تردد، قد تكون (وداد) أكثر من مجرد فتاة، رفيقة طفولة طويلة، بينهما حب خالص، مجرد من الأحاسيس الغريزية، بينهما قبلات ناضجة، شاعرية، لكنها خالية من سموم العاطفة وجشع المراهقة.. !!

* * *

فتاة أخرى..

فرضت حضوراً على ذاكرته، قدمت من مكان ما، يومها كان في العاصمة، رغب. يهاتف (وداد)، وقف قرب (كابينة) الهاتف، أنشغل يدوّر المزولة، أكتشف فتاة واقفة أمامه، تتحت

فيه عينين راغبتين، فارجة شفتيها، تمطره غرائز أنثوية واضحة، أنتبه، ابتسمت، لحظتها لم يعرف لم ابتسمت تلك الفتاة بوجهه، ظلّ مرتبكاً و(وداد) لا ترد على رنين الهاتف، سمح للفتاة تجريب حظها، رآها تدّور المزولة، تقطع، تعيد الكرّة، لم ينتبه للعبتها المقصودة، محاولة إغواء من فتاة جاءت، وقفت بالقرب منه، ربما لم تكن تريد مهاتفة أحد، فقط رغبت تلقي صنارة حظها على صيد مؤهل، شاب منفرد في (كابينة) هواتف عمومية يمتلك رغبة غامضة، فتاة واقفة لديها رغبة صريحة، يا ترى من يفهم رغبة فتاة ناضجة، تأتي بكامل أنوثتها، تقف بلا تردد أمام (كابينة) هاتف مشغول، ربما هناك (كابينات) أخر شاغرة، لم ينتبه لتلك الفكرة (التي باغتته الآن طبعاً)، كان يجب أن يتلفت يمنة، يسرة لمسح (الكابينات) الباقية، بدت الفتاة واثقة من نفسها، فتاة سفور، شهيقها منتظم، لا تبدو عليها انفعالات قلبية، رغب.. يتكلم إلى (وداد)، رغب.. يستعرض رغبته، رغب.. شراء شيء من العاصمة، شيء تتمناه (وداد)، الفتاة أرادت يتكلم، أو يقول شيئاً، (هذا يتضح الآن بعد مرور سنوات طويلة على المشهد)، لم يعرف هذه الأشياء الواجبة، لو كان يعرف ربما وجد فرصة قضاء نصف نهار برفقة فتاة غريبة، ربما صحبة بريئة، لا تعدو سوى مكاشفات، تبادل معلومات شبابية نصفها أكاذيب، أسئلة سخيفة تنطرح كلّما يلتقي فتى فتاة، كل واحد يسرد بشيء من الراحة أكاذيبه على الآخر، الآخر مقتنع رغم علمه أنها أكاذيب (دونكيشوتية)، لكنه يستوعب، ينغمر، يذوب في عالم المسرات

الكلامية، كان يعرف الدنيا عبارة عن فتاة أسمها (وداد)، وشخصه الواثق كل الثقة من قدراته الذكورية، عالم ينغلق على كائنين، ذلك هو حجمه الحقيقي في ذلك الزمن، كانت الفتاة تمارس شيطنتها، صامد كملاك، غبي في فهم الأمور، مفرغ من لهفة الرجل المثلوم إلى نصفه الضائع.

الفتاة توقفت عن تزويل المزولة.. تأوهت:

- الخطوط مشغولة.

لم يفه بشيء، لم تحقق الفتاة رغبتها حين قالت كلامها، توسمت، ستفتح الباب، ستهب عواصف عواطفه الهائجة، الجو ملائم لهبوبها الصاعق، غيوم تبشر بضحكة طويلة، كانت ترمقه بعينين تتطلقان، كان يبادلها رمقات مرتبكة بعينين غبيّتان.

الفتاة تعرف كل شيء، تمتلك الجرأة النادرة لاقتحام بحار الكواسج العاطفية، صامدة، تتحدى بسلاح الشيطنة، بفتنتها الفتّاكة.

كان هو يتناثر شذر مذر، لم يعرف شيئاً خارج حدود عالمه الـ(وداد)ي، عالم الطفولة الدائمة، البرود الممقوت من قبل فتيات عصر ما بعد الحداثة، لم يجد ما يبديه، ظلّ يرمقها بشيء من الخوف، عنيدة من تعشق، نمرة جائعة، الفتاة أضافت:

- حاول أنت ثانية.

تراجعت إلى الخلف، تقدم هو، كانت يده مرتبكة، سقطت الحاكية من يديه، بدأت تتراقص متعلقة بالسلك اللولبي، انحنت الفتاة، مسكت الحاكية، مدتها له.. تكلم:

ـ أشكرك.

تكلمت هي:

ـ هل أنت من هنا.

ماذا لو تتربص بهما (وداد)، من مكان أمين تلقي نظرة إليهما، شعور مباغت أستوطنه، محاصر بعيون (وداد) أينما يكون، معضلة كونية، كل واقع في الحب الأوّل، خائفاً يمشي، يرسم في باله، عيون صاحبته ترافقانه، يخاف أن يرتكب شيئاً يعاقب عليه الطرد من القلب الذي وقع أسير حبائله.

العاشق حريص على مشيته، في أظهار تصرفاته، من الجائز معرفة العاشق من خلال مراقبة بسيطة، جولة استطلاعية عيانية تطرح الكثير من (ألفباء) شخصيته.

وجد نفسه محاصراً لحظة رغب ينسحب، كانت الفتاة تسد عليه الباب، محشوراً داخل (الكابينة) الزجاجية، وجد الصمود أرحم، المكوث أسلم، وقف ينظر إليها.. قالت:

ـ هل أنت من خارج العاصمة.

ـ نعم.

جواب مقتضب، تشجعت، طرحت رغباتها بشكل آخر، مراوغ وسهل، بدت في تلك اللحظة فرحة، ربما لأنها وجدت ما تبحث عنه.. قالت ساخرة:

ـ أين يقع.. (نعم).

صمت، أطلقت ضحكة ماهرة، مبللة بلسعة إغراء، لم يرغب.. يضحك، تعلم في الكليّة العسكرية، المرء قادر على لجم أو

كبت تصرفاته، الإرادية واللاإرادية، تعلم الدرس جيداً، صارت الصرامة طابعه الشخصي، الحزم مركبه الوظيفي، لم يعقب على ما قالت، عرف.. الفتاة تبحث عن صيد لائق، يكتم تهيج عواطفها.

مربوعة، مقصوصة الشعر، تحمل حقيبة يدوية، ديواناً شعرياً، تمكن من قراءة العنوان، (مائة رسالة حب) للشاعر الغزلي (نزار القبّاني)، رأى الكتاب في بعض المكتبات، قام بتقليب صفحاته، لم يجد دافعاً معنوياً لشرائه، وجده ديواناً شعرياً مبتذلاً، يناسب المراهقين والمراهقات، خاف على (وداد) لحظة فكّر. يشتريه هدية لها، خاف أن تتلوث وتطير من بين يديه لتقع في عش آخر.

ها هو الديوان بين أنامل فتاة تسد عليه الدرب، فتاة لا تبدو عليها ومضات مراهقة، ربما تكبره، ماذا لو قامت بحصره، أو ألقاء نفسها عليه، (فكرة مقلقة باغتته)، كيف يتصرف، بحث عن سبل الدفاع، ربما ستعيط، ستستقطب المسافرين، لو قام بفعل مباغت، ماذا يتوجب.. يفعل، بالطبع لا أحد يصدقه، الجنود تركوا أشياء لا أخلاقية أينما تواجدوا، في الكراجات تحرشوا بالفتيات، في الملاجئ يعلقون صور لفتيات الفن والغناء، لابد سمعتهم محصورة في بوتقة واحدة، تعرفها الناس، رأى بنفسه تصرفات عسكريين مخجلة، لم يجد حلول منقذة، لابد أنها ستفعل شيئاً لو بادر بفعلة مباغتة، واقفة، تبتسم، تسكنها رغبة ليسكنها.. قال:

- حاولي أنت.

ماكرة وجدها، لم ترغب تبديل مكانها، أو تغيير موقعها، مثل شحّاذة لا تتنازل عن مهنتها مهما اغتنت، واقفة، عيناها جامدتان فيه، فكر.. ينحني، يمر من تحت ذراعها الممدود، ذراعها اليمين بشكل مستقيم يربط جسدها بعتبة باب (الكابينة)، فرصة لائقة للتخلص منها، أنحنى، رغب.. يمر، سقطت يد الفتاة على ظهره، تجمد، رفع رأسه.. أطلقت الفتاة ضحكة خفيفة.. قالت:

- تعبت يدي.

- تأخرت كثيراً، علي اللحاق بالحافلة.

- لا توجد حافلات في المرآب.

أنتبه لفراغ الكراج من الحافلات، وجد أفواج الناس تتدفع وراء حافلة تريد.. تخترق الموجات البشرية المتدافعة.. قال:

- تلك حافلة قدمت.

- لا تهتم.. سأحجز لنا مقعداً.

- من أين أنت.

- من الحلّة.

- من الحلّة.

- يبدو عليك أنك من خارج العاصمة.

- أنا من (جلبلاء).

- دمك برتقالي.

لم يفه بشيء، تعذر على لسانه جلب كلمات مناسبة.. أضافت:

ـ كل خميس أنا هنا، طالبة في كليّة التربية، قسم اللغة العربية.

ـ أنا أيضاً سأكون هنا.

سمحت له الفتاة الخروج من قفص الرغبة، بعدما تأكدت أنها لوثته بفيروس عاطفتها، وقفت الفتاة تنظر إليه، مشى متعرقاً، جاف اللسان، مشى كثيراً، قبل أن يستدير، وجدها جالسة في مقعد خلف السائق مباشرة، لوّحت بكتابها، رأى كيف سقط ديوان (نزار القباني) من يدها، كانت الحافلة تمشي بتعثر، تخترق أفواج ناس يسورونها، توقع أنها ستقف، سيهبط مساعد السائق من أجل الكتاب الساقط، الحافلة واصلت سيرها، ربما ستنادي السائق هكذا توقع، لكنه من شدة أكداس الجنود لا يسمع نداءها، ربما هي خجلة يتعذر عليها رفع صوتها من أجل كتاب أنتفت الحاجة إليه، بعدما حققت حلمها، بينما كان ينتظر وقوف الحافلة من أجل الكتاب الساقط، لمح بائع سجائر، ولد يافع يرفع الكتاب من بين الأقدام المهرولة خلف الحافلة، رأى جنود على سطح الحافلة، آخرون يحاولون التسلق عبر النوافذ الجانبية، ظلّ واقفاً ينظر من خلال الزحمة بحثاً عن وجهها.

بائع السجائر أدخل الكتاب إلى حقيبته النسيجية، استدار وبدأ ينادي: (حب.. جكاير.. علج).. !!

* * *

توقفت المركبة عن السير، أحدهم فتح الباب الخلفي، وجد

نفسه وسط حديقة كبيرة، أنتبه لرجلٍ ينظر إليه، أشار برأسه، بحث عن أشياءه.. قال الرجل:

- حقيبتك في الردهة.

غمرته راحة، تبعه، دخل وراءه رواقاً طويلاً، وقف الرجل أمام غرفة، فتح الباب، تبعه إلى الداخل، أجلسه الرجل على سرير، ثمة أسرّة أخرى، أسرّة خالية، وجد حقيبته قرب السرير. تكلم الرجل مرة أخرى:

- مقامك حتى وقت قريب.

- أين أنا من فضلك.

- مشفى الأمراض الغريبة.

كانت عيناه خائفتان، وجد ملامح الرجل الواقف يتلون بوضوح. قال له:

- أعرف دائي.

- حسناً.. لا شيء مستحيل في يومنا هذا.

- ما هو الموقف.

- المعارك تتوسع.

- حسناً هل يمكنني متابعة الصحف.

- كل ما ترغبه يأتيك، فقط أكتبها في ورقة رجاء..!!

* * *

يوجد أمامه تقويماً ورقياً، بدأ يمزق ورقة تلو ورقة، عرف.. قضى شهراً داخل تلك الردهة، علاجه يتواصل، يترهل شيئاً

فشيئاً، تابع أخبار الحرب عبر الصحف، يأتيه طبيب، يختلف عن ذلك الطبيب صاحب الكلمات الاستهزائية، طبيب متزن.. مرة سأله:

- هل أخرج من هنا.

أجابه بكل هدوء:

- حين نصل لقلب علتك نحررك.

- هل سيطول علاجي.

- هذا متوقف على ظرف البلاد.

- لا أفهمك يادكتور.

- بلادنا تخوض حرباً (شبه مقدسة)، نحتاج أسلحة ومعدات حربية، أكثر مما نحتاج إلى علاجات وباءات فردية.

- هل من الممكن شراء الدواء على نفقتي الخاصة.

- لو فهت كلامك هذا أمام الآخرين لأدخلوك السجن.

- لا أفهم كلامك دكتور.

- كلامك سيفسر، طعن مباشر في خاصرة البلد.

- طعن.. !!

- وهل تقبل الحكومة فرداً يشتري الدواء على نفقته الخاصة، مادة إعلامية نادرة لأعلام العدو.. !!

- رغبتي الكبيرة العودة إلى الجبهة.

- لا تستعجل الأمور، الكل سيشارك في الحرب.. !!

* * *

القسم الثالث

بعدما شاع نبأ رحيل النقيب (مالح) عن البلدة، هلّت أسارير الفرح على وجوه الناس، في غمرة تلك المسرّة تصاعدت صيحات استغاثة من جهة البيوت الصفيحية للـ(غجر)، جذبت الأصوات جموع بشرية خرجت من منازلها، تراكض أصحاب الفضول، بلهفة عارمة، نحو مصدر الضجيج في سباق محموم غير مسبوق، كل فرد رغب. يصل قبل الآخرين، تلاقت المواكب لاهثة، أفواه تنثر رذاذ بصاق، شهيق مختنق يتداخل، سعال متحشرج يتشابك، بعضهم بدأ يقيء ما أكل.

داخل المملكة الصفيحية، كان (الغجر) يلملمون أشياءهم بشيء من الارتباك، بعض الصبيان وقليل من الشباب، بدئوا حملتهم العشوائية، قذفوا الحجر ومهملات الأشياء المتراكمة، علب فارغة، قطع أقمشة قذرة، أشياء تتصادم في الفضاء، قبل أن تهطل داخل السياج الصفيحي لمملكة الأنس، بعضهم حاول قلع الصفائح من الأوتاد المنغرزة في الأرض، من داخل السياج الدائري، علت صرخات استغاثة، حاول بعض الرجال وقف الغضب (الجلبلاءي) العارم، عبثاً تبددت جهودهم، رهط قليل، أمام فئة

مهاجمة تتكاثر، زغاريد بدأت تنطلق من أفواه نسوة عززن الصولة، قعد أصحاب الرحمة يلهثون، بين حيرة مما يجري، ومسرة توالدت لرحيل سيادة النقيب (مالح) عن البلدة، صرفوا ما بوسعهم من جهود فردية، تضافرت أحياناً، لدرء الخطر عن الضيوف، كانت قناعتهم راسخة، (الغجر) سيرحلون، سيسكت الليل عن ضجيج الإثم، ستتجرد ليالي البلدة من غبار الخطيئة، من فوضى الحياة، سيعود برود الأعصاب من جديد إلى رؤوس الناس.

بعضهم وجد رحيل (الغجر) نهاية العالم، نهاية الحياة في البلدة، نهاية التاريخ القديم، قتل واضح لحضارة ما زالت مطمورة تحت صخرة عملاقة، تشكل بوابة البلدة من الشمال، (جلبلاء) حاضرة الوقت، منبر تجارة موسمية، هكذا صرخت شهواتهم، لأن الفرح سيغيب طويلاً طالما المدافع بدأت تدك من بعيد أطراف البلدة، ربما ستأتي طائرات وصواريخ عابرات مدن، أنهر، جبال، تدك المنازل مثل الزلازل.

من بين الغبار المتصاعد والموج البشري المحتدم، من بين الفوضى الحاصلة، برز الرجل النحيف، خرج من فتحة أحدثتها أيدي صبيان، أشار رافعاً يديه، سكتت الأفواه عن الصراخ، تحجرت الأيدي، بعضها ظلّت مرفوعة تعصر حجراً، شيئاً ما، الكل يعرفه، رجل قدّم للبلدة يوم الفيضان الأخير جهود كبيرة، من ذاق زاده رحم بحاله، استحضروا يوم قدّم قافلة حمير عليها طعام، كيف ناضل لتخفيف آلام المنكوبين، تقدم الرجل النحيف من الناس، وقف أمامهم، أراد أن يقول شيئاً، في تلك اللحظة عرف

الناس، راقص (الجوبي) رجل أخرس، ندت تنهيدة طويلة من الثغور، كانت متناغمة، منسجمة، الرجل توسل بطريقته اليدوية، بلسان يتحرك، لا يخرج من فمه سوى غمغمة، إشارات لم يفك ألغازها أحد، جميعهم اتفق، الرجل جاء إليهم يطلب الرحمة، يطلب وقف حرب الحجر عليهم، حرّك كلتا يديه بصعوبة بالغة، دمع ينهمر على خديه من غير توقف، تصاعدت همهمات، تساقط حجر من كفوف بقت مرفوعة، تقدم ولد يطلق لحيته، ربت على كتفه.. صاح:

- أرحلوا!!!! بسلا!!!!ام..!!

أنسحب الرجل، مشى خطوات، انتبهت عيونهم، توقف الرجل، لم يواصل سيره، توقعوا أنه عائد يقول لهم بيديه شيئاً آخر، ربما يريد أذن إبقائهم في البلدة، فجأة سقط الرجل النحيف، هرعت الناس إليه، وجدوه يحلق بعينين دامعتين، تدخل رجل ورفعه، وضعه على كتفه ومشى باتجاه موقف العربات اليدوية، وضعه في حوض عربة وراح يدفعه، رافقه جمع كثير، عربة عليها رجل (غجري) وراءها ناس تتزاحم راكضة، صمت مطبق، إلاّ من وقع أقدام تهرول.

قسم قليل فقط منهم أنسحب إلى المنازل لنقل الخبر الجديد.. !!

* * *

قبل الظهيرة بقليل، رتل الـ(غجر) يشق طريقه باتجاه الجنوب، وصلوا إلى المشفى، ألقوا خيامهم، حاول الطبيب أبعادهم مسافة

معقولة، تحسباً لتطورات الحرب الدائرة، كانت هناك أنباء مشاعة عبر طوابير الرتل الخامس، أن العدو سيضرب المدن بصواريخ بعيدة المدى.

(الغجر) قعدوا من غير سماع رأي الطبيب، قوم لا يهمهم الحرب، غير مشمولين بها، لا أحد يرميهم بالرصاص، كونهم لا يؤمنون بالحرب، فالحرب في عقولهم، عراك حيواني محض لا يليق بالبشر.

كان الرجل النحيف ممدداً على سرير متحرك في ردهة خاصة، نفس السرير الذي عرف الضابط، النقيب (مالح) عليه داءه الخبيث.. !!

* * *

الكشوفات الأولية أعطت فكرة كاملة لطبيب المشفى، ما يعانيه الرجل النحيف، الراقص (الغجري) نفس ما كان يعانيه النقيب (مالح)، توصل بعد جلسة منفردة داخل غرفته، هناك أشياء غامضة حدثت في البلدة، بدأت مع قدوم (الغجر) ربما رحيلهم لا يعني نهاية تلك الأشياء المخيفة، يعرف. . الجراثيم حين تجد حاضنات مؤهلة، تنمو، تجتاح كل جسد مؤهل، يتوجب إعداد مضادات حيوية لمجابهة التطور المتوقع لداء ربما هو داء الزمن القادم، يعرف.. كل فترة تبرز معالم أو بوادر داء يشغل الناس، يحيّر أطباء العالم الثالث، العالم النائم، يحصد أرواح كثيرة قبل اكتشاف مضاداته الحيوية.

تنامت شائعة في البلدة، قيل إشاعة مستوردة، نثرها رجل غريب، تقول تلك الشائعة:

ـ عصابات مافيا تصنع جراثيم فتّاكة، تنشرها عبر وسائلهم الشيطانية، في بلدان الغنيّة بالنفط والمشاكل، مع الرياح، داخل الأغذية المعلبة، مع الأمطار، كي تبيع مضادات لها، مهيأة تم صناعتها سلفاً.

كل شيء ممكن في عالم غامض، فقد مصداقيته، بعد زحزحة منابر الثقافة عن صالات السياسة.

* * *

ترك الطبيب غرفته، وجد أحدهم يترقب النتيجة النهائية، الرجل النحيف قد يكون مصاباً بتلويث دموي آخر، ربما حدث له مكروه من قبل الناس لحظة خرج إليهم، أنشغل بالحالتين، الطبيب افهمه:

ـ القضية تحتاج إلى مزيد من الوقت.

الداء غامض، الأعراض ربما ستفصح عن مترتبات قادمة، لا يجوز التخمين المسبق، أنسحب الرجل لينقل الخبر إلى قومه المنتظرين، في اليوم التالي تأكد الطبيب من الفحوصات كاملة، وجد الرجل النحيف يسري في دمه داء نادر، يتوجب حجره وفق التعليمات القادمة من (وزارة الصحة)، حاول (الفجر) انتزاع رجلهم الأخرس، باغتوا الطبيب بهجوم (غجري)، عبروا سياج المشفى، حاولوا قلع الباب الحديدي للردهة، الطبيب أحكم رتاج الباب من

الـداخل، لازم الردهــة المركزيــة للحــالات الطارئــة، دخلــوا إلى الردهات الشعبية، الغرف الإدارية، مـن بعيـد صـدحت مكـبرات الصوت، أعلنت مجيء مركبة شرطة البلدة، تتـاثر (الفجـر)، تم حجز كبيرهم ليومين في زنزانة البلدة.. !!

* * *

بينما كانت الشرطة تكافح لطرد (الفجر)، داخل الردهات، والغرف التي عاثوا فيها تدميراً، وسط صيحات مرضى انقلبوا من علـى أسـرة تحـركـت مـن أماكنهـا، تناقلـت أفـواه النـاس شـائعة مفادها:

- البلدة حلّ بها (وباء غامض)، لن ينجو منه أحد.

وجـد الـبعض نفـسه يهـذي، يمـشي باتجـاه المـشفى، تزاحمـت الجموع البشرية، تريـد إيضاحات حـول المـرض الخبيـث، بعـضهم صاح:

- لقحونا بمضادات (إستباقية) لصد الجراثيم القادمة إلينا.

لم يجد الطبيب وقتاً أو رغبة لاطمئنان الناس، وجد نفسه أمام وحوش جـاءت للتـدمير، الأمـر الـذي دعـاه يتصل بـشرطة البلـدة، جاءت مركبة زاعقة من بعيد تطلق عيارات هوائيـة، تفـرق النـاس هاربين، في ذلـك اليوم تم نقـل الرجـل النحيـف إلى مكـان مـا، لا يعرفـه أحـد، سـوى أنهـم لمحـوا مركبـة (إسـعاف فـوري) دخلـت المشفى، وأخذت الرجل النحيف باتجاه العاصمة.. !!

* * *

في غرفة (الضابط الجديد) للبلدة، أعترف كبير (الغجر) سر تعلقهم بصاحبهم الراقص، أكد:

- ليس من أصولنا (الغجرية)، رجل عاش معنا سنيناً طويلة.

ذكر لقاءه الأوّل به، يوم تجول خارج مستعمرتهم الصفيحية، وجد طفلاً يبكي، تقدم منه، بيده كسرة رغيف، قدّم الرغيف إليه، سكت الطفل المرمي قريبهم، تناول الكسرة، ألتهمها، في تلك اللحظة، هرع داخلاً، خرج يحمل رغيفاً كاملاً، أعطاه الرغيف، جلس لصقه يراقب، طفل متوحش في الأكل، يأكل بشراهة نمر جائع، أشار إليه، عرف. . يحتاج ماء، قام، هرول داخلاً، عاد حاملاً علبة معدنية فيها ماء، خرجت أمه، سكتت عن نداداتها له، رأت مشهداً يستحق الصمت، تقدمت، لم يتكلم الولد، أمه خشت من عواقب الأمور، قام الولد يمسك يد الطفل المرمي قرب منازلهم، أذعنت أخيراً لرغبة أبنها، من يومها صار الولد يكبر معهم، تعلم الرقص، أصبح ماهراً في مهنته، سمّوه (فالح) لأنه أفلح في تعلم مهنة الرقص بسرعة مذهلة، لم يأتِ أحد يسأل عنه، عرفوا.. ولد أخرس، زاد ذلك من حبهم له، وجدوه يشكو من حالات هذيانية تباغته بين فترة وأخرى، عرضوه على أطباءهم، أعطوه تخليطات أعشابية متنوعة، لم يصلوا إلى طريقة شفاءه، أوان يداهمه الهذيان، يتعرق جسده، تتجمد عيناه، ينهض من جموده، يرقص بعنف، يواصل الرقص حتى يغشى عليه، في الصباح ينهض كأن شيئاً لم يحصل له، رافقهم إلى كل بقعة أرض، كسب ود زبائن، ترك أينما حطوا رحالهم مناقب حسنة،

رفض.. عندما طلبوا منه تزويجه بينت منهم، كان يشبك أصابعه، عرفوا.. يعتبرهن أخوات، رفض أيضاً تزويجه من فتيات (غجريات) من قبائل أخرى، عاش معهم، مؤتمناً، حريصاً على أداء مهماته الرقصيّة، حتى الضابط القديم النقيب (مالح)، كان يكن له الود، يأتي ليسهر عندهم، يقوم بريت وجنتيه، يفرك أنفه الطويل، وكان (فالحاً) يغتبط لذلك.

ليس بوسعهم الاستغناء عنه، سيشعرون بحزن كبير عليه، ربما ليس بوسعهم الرحيل من دونه، كلام كبير (الغجر) لم ينفع، أو يشفع، ربما لو كان(الضابط القديم) موجوداً لما رحلوا من البلدة، ليس بوسع أي أمر مهما كانت جهة إصداره تنفيذ حجره الصحي، الأحوال دائماً في تبديل متواصل، كل شيء رهن ظروف تتلاحق، عكس مسار رغبات الناس.. !!



بقى كبير (الغجر) يومين داخل زنزانة الشرطة، قبل أن يفاجئ (الضابط الجديد) قدوم كوكبة حسان، دخلن غرفته، يلبسن ملابس زاهية الألوان، ينثرن شعورهن بشكل مستريح على أكتاف بضة عارية، وقفن، نثرن ضوءاً مدمراً للرغبة، لم يجد (الضابط الجديد) فرصة بلع ريقه، مرتجفاً قام من وراء الطاولة، في تلك اللحظة الأرض الأسمنتية من تحت قدميه، ربما من تحت أقدام البلدة كلّها، ربما من تحت أقدام العالم كلّه، فضحت قرعات (قباقيب) منسجمة، إيقاعات منضبطة مع ضربات القلب بدأت

تتصاعد تدريجياً، مهدت لرؤوس الشرطة، أن تمتد من وراء نافذتي الغرفة، الضابط وقف ملجوماً مصدوماً منحوتاً مأخوذاً مسحوراً، ست فتيات، متساويات في كل شيء، قامات رشيقة، شعور طويلة تبرج، نظرات متوحدة، ثغور مصبوغة، رمانات صدرية متحفزة، كأنهن هبطن من كوكب آخر، بدأت الرقصة الوطنية الشهيرة، رقصة (الجوبي)، تهتز الأجساد، تتقافز، من على الجدار الخلفي لكرسي (الضابط الجديد)، بدأت الصورة المعلّقة لجناب (السيد الرئيس) تهتز، ربما هو الآخر رغب يرقص، بعدما تحقق حلمه الخالد، لقد وصل كرسي الزعامة من غير انقلاب أحمر، أو حرب أهلية مدمرة، هبط (سيادته) بقيافته العشائرية، من وراء (الجام)، أشتبك مع الفرح الكوني الذي لن ينتهي، (رقص عام) قرار صادر من مجلس قيادة الشعب، ذلك هو المطلب السياسي الكبير لدولة لا يجوع فيها (حرامي)، لا يشنق فيها مجرم، ست أجساد لدنة، مرحة، من غير موسيقى، مثل نوافير المياه المنضبطة، مثل خيوط الندف الثلجية في (أوربا) تهبط بروية، برفق، هبط (السيد الرئيس) من مكانه الجديد، ضاحكاً دخل حلقة الرقص، يا لرقصته الماهرة، شاطر في شق الاشتباكات الجسدية المنتشية، يتقافز، يتناثر، يشيع الفرح في عموم النفوس العليلة، طلعته بدر يزيل أوضار التخلف، يكنس مزابل الجهل المتفشي، ينثر رياحين الحماسة القبلية، العز، الشرف، الغيرة، المجد.

تفاجئ (الضابط الجديد) أفعى ناعمة الملمس تقبض عليه، أفعى سحبته، ابتلعته، وجد نفسه يشتبك، رقص حتى العظام،

رقص حتى الموت، يتقافز، (طز على الشعب) كل شيء حوله يرقص، (السيد الرئيس) يرقص، على الناس النزول إلى الشوارع، التعري التام، الرقص معاً، رجالاً ونساء، بنات وأولاد، الضابط يضحك، عليه أن ينفذ الأوامر، فهو (عبد الرئيس) .

تراخت الأجساد، هدأت النفوس، شبعت القلوب ضحكاً، تراخى السيد الضابط وراء طاولته، بحث عن ماء. . تقدمت منه واحدة، قرّبت من فمه قدح، نظر في عينيها، عينان تضحكان، عينان جديدتان، رشف الماء، ندّت من فمه تنهيدة طويلة:

- آآآآآآآآآآآآآه.

فهقهت حاملة القدح.. صاحت:

- (وجعاااااااااااااااااه).

قام، نسي نفسه، رغب.. يرتكب حماقة علنية، قبل أن ينتبه لضحكة سداسية منسجمة متناغمة، ترك ثوب حاملة القدح، انتبه.. نقرات تأتي من خارج النوافذ، قام.. تقدم.. ألقى نظرة، في الشارع الرئيس كانت الشرطة متشابكة الأذرع ترقص، تضحك، على الرصيف المقابل جماهير من الناس تصفق، تحاول تقليد الشرطة في رقصتهم، وجم قبل أن يشعر بواحدة تشبكه من الخلف، لم تكتف بذلك، شعر بأصبع حاد يكاد يخترق (إسته)، ارتعشت أوصاله، انسحب، فاقداً حواسه، انتبه لصورة (السيد الرئيس) ساقطاً مهشم الزجاج تحت الأقدام، هرع إليه، رفع الصورة، لملم الزجاج المتناثر، الفتيات ينظرن إليه، يطلقن كركرات (غجرية).

في الخارج ما زالت الشرطة ترقص، أصوات تتصايح من أفواه المحتشدين، غبار يخنق الفضاء، توقف (الضابط الجديد) عن لملمة بقايا الزجاج المنثور، وقف يريد قول شيء.. باغته صوت أحداهن:

- زرنا ليلاً لنرقص حتى الصباح.

قال:

- أخرجن.. أنهم سيعدمونني.

- لا تخف.. الحكومة تحب الفرح، لدينا تخويلاً لنفرح الناس.

- أرجوكن.. أخرجن.. سيعدمونني أمام الناس.

ضحكة تعالت من فم، الرقص يتواصل في الشارع، قامت صاحبة الضحكة، تقدمت منه، استدارت حوله، شدّت حول رقبته طوقاً ذراعياً خانقاً، قرّبت فمها المصبوغ من أذنه.. همست:

- تخرج شيخنا وترجعنا إلى البلدة وتعيد لنا راقصنا.

مد يديه، فك اشتباك الذراعين من حول رقبته، قامت (الفجرية)، قام وراءها، تراجعت إلى مقعدها، دنا سيادة (الضابط الجديد).. قال:

- سأخرجه من السجن.

- أعدنا للبلدة.

- سأحاول الحصول على ترخيصٍ يجيز لكم البقاء في البلدة.

- لدينا ترخيص بذلك.

- نحن نخوض حرباً.

- ما علاقتنا بالحرب، الحرب حربكم أنتم، نحن شعب لا يحارب.

- الناس تقدم ضحايا، وأنتم تلهون.
- نحن نوفر لهم غذاء السعادة لكي لا يموتوا.
- أخرجن حالاً.
- ورجلنا في المشفى.
- ليس أمره بيدي.
- حسناً أخرج شيخنا.

توقف عن الكلام، عاد إلى طاولته، ضغط زر الجرس، في تلك اللحظة ساد الشارع العام هدوء شاملاً، دخل أحد شرطته، متعرقاً يلهث، فاتحاً فمه، دالقاً مثل كلب لسانه، يكاد يسقط من وقفته، تعالت ضحكات الفتيات الجالسات، تدارك (الضابط الجديد) خطورة الموقف، أمره بجلب كبير (الفجر):

- أخرجه بأدب، أجلبه بسرعة.

قرع الشرطي الأرض بقدمين واهنين، خرج، بعد دقائق عاد، معه كبير (الفجر)، تفاجئ الرجل حين دخل، قمن الفتيات، تقدمن منه، عانقنه، أشار الضابط لشرطيه بإيماءة، خرج صافقاً الباب وراءه، قام الضابط من وراء الطاولة، تقدم من الرجل، عانقه، أبدى اعتذاره الشديد لما أبدوه تجاهه، لم يقل الرجل شيئاً، بدا متعباً منهاراً، سحبه من يديه، أجلسه وراء الطاولة السيادية، وقف كشرطي أمامه، قبل أن ينتبه إلى الوراء، مشى، أغلق رتاج الباب خشية دخول أحد شرطته، أنتبه إلى النافذتين، تقدم، أسدل الستائر، سمع صوت إحداهن:

- ياضابط يا حلو أعدنا إلى البلدة.

- سأحاول.

- الضابط القديم كان الحجر يخشاه.

- ماذا تريدون منّي.

- نادي على الناس، قل لهم الفرح سيعود من جديد إلى ليالي البلدة.

- لكن الحرب.

- يووووه.. حرب حمير.. ناس تريد تموت وناس تريد تعيش فرح.

- حسناً.

- هيّا قل لـ(ملاّ) الجامع يقول للناس عدم إيذاءنا.

- حسناً.

- أعد لنا راقصنا.

- ليس أمره بيدي.

- قل للطبيب يخرجه بأمرك.

- حسناً.

- هيّا..؟؟

تقدم (الضابط الجديد) من الهاتف، بأصابع مرتبكة بدأ تزويل المزولة، حاور طبيب المشفى، كان يتكلم بتعثر واضح، ينظر بخوف إلى عيون تتفرز فيه، وضع الهاتف.. حشرج صوته:

- أخذوووووووه.. !!

الفتيات الست قمن دفعة واحدة، توجهن نحوه، رجفة مباغتة خضت أوصاله، وحيداً بين أمواج ملونة، عيون واسعة، أفواه فاغرة، الرجل الكبير جالس، جف ريقه، قبل أن يجد كلمة

مناسبة، باغتته إحداهن:

- أنت سبب فقدانه، إلى أين أخذتموه إلى حريكم الخبيثة.

أجابت أخرى:

- أرجعه يا ضابط.

- حسناً.. أجلسن، لنفهم الأمور.

في تلك اللحظة طرق الباب، تجمد الضابط في مكانه، دفعته إحداهن مع ضحكة خفيفة:

- أفتح الباب ياضابط.

مشى والخوف يبدده، وجلاً فتح الباب، وجد شرطيه واقفاً يكاد يسقط من الإعياء.. قال:

- سيدي يقولون (السيد الرئيس) في طريقه إلى البلدة.

- السسسسسسسيد الررررررررئيييييس.

- نعم سيدي.. سيمر من هنا ليزور جبهة الحرب.

- قل للشرطة أن تتهيأ.

عاد مأخوذاً، تقدمت منه (غجرية).. قالت:

- سمعنا كلمة (السيد الرئيس).

- سيأتي إلى البلدة، أخرجن حالاً.

- لن أخرج قبل مقابلته.

- تقابلينه.

- سأقول له يا جناب الرئيس، ضابطك يرقص جيداً.

- مااااااذذذذذا..!!

قامت أخرى، تقدمت منه، باغتته من الخلف. همست:

ـ أريد لقاء (السيد الرئيس).

أجابت الأولى:

ـ أنا سأريك سيادته.

مشت إلى الطاولة، رفعت (الجرجوبة) محطمة الزجاج. صاحت:

ـ هذا هو جناب (الرئيس) الجديد.

صاحت واحدة:

ـ يااااااه.. يشبه بعلي الثالث.

كاد (الضابط الجديد) ينهار لو لم يتدخل كبير (الفجر) في اللحظة المناسبة.. قال:

ـ حضرة الضابط .

لم يكمل كلامه. . قاطعه الضابط:

ـ أخرج.. سنلتقي في أقرب فرصة.

خرج كبير (الفجر) برفقة الراقصات الست، وقف الضابط حائراً، كناهض من براثن كابوس، سحب نفساً عميقاً، فكرّ بطريقة ما، يتدارك أمره، خارج غرفته، حشود بشرية تتدافع، بدأت هتافات تعلن عن تأييد مطلق وولاء غير مجذوذ، خبر وصول (الرئيس) الجديد للبلاد وصل كل بيت، تركت الناس أعمالها، بارحت منازلها، هرولت باتجاه إدارة البلدة، كل يد تلوح بعريضة فيها مظلمة، طلب حاجة، مال، منزل، رحلة علاج خاصة، أطلاق سراح سجين.. !!

* * *

في مشفى مركز المحافظة، أدخلوا الرجل النحيف إلى ردهة فارغة، تركوه أسبوعين كاملين في انتظار وصول طبيب مختص من العاصمة، أنهى دورة دولية عن سبل معالجة جرحى المعارك ميدانياً، ترك أوراق تحاليله لحظة علم مريضه أخرس.

بعد يومين وجد نفسه أمام أوراقه مرة أخرى، ألقى نظرة على جميع الكشوفات المتراكمة على طاولته، لم يجد سبباً يقنعه سبب هزاله المتواصل، طبلته تؤكد تناوله طعامه بانتظام تام وبكميات غير معقولة، لا يشكو من شيء، لم يجد سوى قلمه، سحبه من جيب بدلته، ببضع كلمات أنهى قضيته.

تم تحويله إلى العاصمة.

* * *

في العاصمة أدخلوه إلى رواق طويل، قاده شخص يرتدي ملابس بيضاء، أدخله ردهة، فتح باباً حديداً، أدخله، وجد الرجل النحيف نفسه في غرفة صغيرة، أغلق الباب عليه، تقدم من الباب، في فتحة صغيرة، في مستطيل بحجم علبة سجائر، نحت عينيه، أراد تفسيراً لحالته، متوقعاً هجوماً آخر وشيك الوقوع لقومه، لابد أنهم سينتزعونه من مخالب آسريه هذه المرة.

باغتته حركة في فتحة مقابلة، عينان بشريتان، ترفان في مستطيل آخر موازي لغرفته، عينان تتوسلان، تحاولان قول شيئاً ما، شخص ما مثله محجور، يهمس همساً ذبيحاً، صاحب العينان يجهل الوافد الجديد أخرس، بقت العيون لفترة طويلة تحاول

تشكيل لغة خاصة للتحاور، لم تدم فترة المكاشفة الصامتة سوى ساعة ونصف الساعة، سمعا قرعات أقدام تخترق الرواق الطويل، تراجعا..كل واحد جلس على سريره، دخل الطبيب إلى المحجرين، فتح سجلاً كبيراً، دوّن ملاحظات سريعة، بعد نظرة خاطفة، قلّب سريعاً أوراقهما، كتب في دفتر ملاحظاته:

١- محجور ضابط بدرجة (نقيب).

٢ - محجور أخرس (غجري) .

* * *

- عادوا.. !!

صرخة انطلقت من كل فم، وقفت طوابير الناس على جانبي الشارع، كانت قافلتهم الحميرية تشق البلدة آتية من الجنوب هذه المرة، عكس دخولهم الأوّل من الشمال، وقفت النسوة غاضبات، من فوق أسطح المنازل، رفعن أصواتهن وأطلقن شتائمهن، والرجال انقسموا إلى فئتين متعادلتين، مسرورون ومكتئبون.

كانت مركبة الشرطة تزف البشرى، تتقدم الموكب، عرفوا.. الأمر أصدره (الضابط الجديد)، بعد قلق ومخاوف كانت تنضج بهدوء في أبدانهم، منذ أنتشر الوعد الذي أبرم داخل غرفة إدارة البلدة، لقد أوفى بعهد قطعه على نفسه، أمام ست فتيات وشيخهن، لحظة سحب (الضابط) نفساً عميقاً، مسك شاربيه، رغم قيامه بحلقه صبيحة كل يوم، تلك تقليعة شرقية، طبيعة بشرية متوارثة، يتمسك المرء بإرث لا يبلى، تجد كلّما يعد أحدهم صديقاً وعداً بتلبية حاجة له، مهما كانت طبيعة طلبه، حتى لو طلب إنزال

القمر، أو وقف مرور أشعة الشمس من على بيته، أو طلب سيجارة في يوم صوم، المطلوب منه يمسك شاربه، يهزه بأصبعين حماسيتين، كماشة محكمة أصبعيه، قارصة معمولة برغبة صادقة، كبس الإبهام على السبابة، توضيح شائع يشيع راحة البال عند الطالب، مضمونه:

ـ طلبك منجز بهذين الشاربين.. !!

وعد مبرم، شاهد على القول هزّة الشارب، لا إخلال بالوعد، المطلوب منه، لو لم ينجز طلبه، سيطيح بشاربه إذعاناً لفشله.

رجال الشرق يعرفون بشواربهم، من يحلقه يكنونه (امرأة)، رغم أن الحقيقة تثبت بطلان تلك النظرية، فما زال إلى يومنا هذا، بعضهم يمارس هذه التقليعة على مر الساعة، كثيرون بدلوها بكلمة خفيفة، سهلة على اللسان:

ـ بالطلاق ثلاث مرات ما يصير.. !!

عرف الناس.. (الضابط الجديد) أرسل شرطيّه الخاص وأتى بشيخ (الغجر)، الناس فسّرت القضية كسابقتها، تناقلت الألسن:

ـ ضابطنا أشتاق لرقصة جديدة.

تجمهر البعض، رأوا بتعجب، خروج الضابط بنفسه، أستقبل شيخ (الأنس)، ليس ذلك فحسب، رأوه خدوماً يقوده من يديه، مثل صديق عزيز جاء من بعد غيبة، فتح باب غرفة أمن البلدة، هناك لم يعد أحد يعرف ما الذي دار، انشغلت عيونهم تراقب الشارع الرئيس، توقعوا، الفتيات الست في طريقهن، قادمات بآخر صيحات الموضة، أعددن رقصة لن تتكرر مرة ثالثة، الساحة

الأماميـة لإدارة البلـدة ستـشهد رقـصة جديـدة، لكــن القـضية توضحت سريعاً من قبل عامل الشاي، نقل الخبر بدقة، طار الناس إلى ذويهم في فئتين متضادتين، فئة مبشرة، فئة منذرة.. !!

* * *

أختار الضابط مكاناً قرب حافات سلسلة جبال (حيران)، في البدء واجه الضابط امتناعاً من قبل شيخ (الفجر):

ـ المكان خالي من الخدمات العامة.

ليس بوسع شرطة غير مدربين، تأمين حماية كاملة لهم، (الضابط الجديد) أقنعه:

ـ الأمور الثانوية سأتولاه شخصياً.

أمر مدير البلدية تشغيل آلياته، ضرورة تذليل العقبات أمام مملكة (الفجر) الصفيحية، قامت دائرة الكهرباء من جهتها، مد قابلوات أرضية لإنارة بيوتهم، فرح بعض الناس، رغم امتقاع وجوه البعض الآخر، من جديد بدأت الحفلات الليلية الطويلة، مع بروز حالة جديدة غير مسبوقة، حالة عويل صفّارات الإنذار بشكلٍ مباغت، أفسدت جو البهجة، جعلتهم يطفئون المصابيح الكهربائية، ويوقفون الرقص ربما لساعة أو يزيد استجابة لأوامر الحكومة:

ـ طائرات العدو ستقصف أماكن الفساد العام.

تحت جناح الظلام، يخلدون لصمت ملفوم، نبضات قلوبهم تتسارع، عيونهم تراقب الشهب المتحركة، تطارد الكواكب السيّارة، خوف ينمو، أنفاس تحتبس، والخيال مشتتاً يتابع صواريخ

وهمية تنطلق إليهم.. !!

* * *

في صبيحة مغبرة، بعد خمس ليالٍ على عودة الفرح الليلي للبلدة، تناقلت أفواه الناس (السيد الرئيس) فاجأ البلدة وهم نيام، بعضهم ترك فطوره، آخرون قاموا وهرولوا بأسمال نومهم، أمام دائرة إدارة البلدة احتشدت الناس حول خمس مركبات (شبح) تتوقف، كوكبة رجال مخيفين يشهرون بنادق غريبة في الاتجاهات الأربعة، تعالت هتافات، توزعت أناشيد الفرح على ألسنة الحشد (بالروح بالدم نفديك...!!) فجأة رأوا (الضابط الجديد) معصوب العينين، مكبل اليدين، سحبوه وألقوه في صندوق أحدى المركبات وانطلقوا به، لم يفهم أحد القضية، الحكاية شاعت فيما بعد، عرفت الناس، أن الرجل الغريب الذي رأوه يدخل البيوت الصفيحية، قام بتمرير تقرير (حزبي) إلى السلطة، ذهب بعضهم.. يريد التأكد من صدق الشائعة، حكت لهم (الراقصة) ما فلت من لسانها أمام الرجل الغريب في تلك الليلة المشئومة، ومن جلس في الصفوف الأمامية سمع همسات دارت بين فم الرجل الغريب وبين (الغجرية)، حفظوا ما قالت له، في نشوة الرقص:

- أنت ترقص مثل الضابط.

- أرقص مثل أي ضابط يا غزالة الليل.. (صاح الرجل الغريب) .

- ضابط البلدة ياولد.

توقف الرجل الغريب عن الرقص، توقفت الفتاة، سحبها إلى الداخل وسط صمت الناس، لابد أنه قام باستجواب سريع، عرفوه، رجل مقرب من الحكومة، كلهم رأوه يحمل مسدساً في حزامه، عندما يتقافز يبرز مسدسه الحكومي، واضحاً على ردفه اليمين، اتفقت آراءهم:

- جاسوس حكومي.

نسجت في الخفاء تأكيدات حوله:

- أرسلته السلطة لمعرفة ردود أفعالنا جرّاء الحرب الجديدة مع الجيران.

لحظة سحب (الغجرية) إلى الداخل، خلدوا للصمت في انتظار ما هو القادم، كثيرون توقعوا مواقعة سريعة لشهوة مباغتة.

الراقصة حكت لمن هرع إليها بحثاً عن إيضاحات، شرحت لهم كل ما جرى بينها وبينه، اعترفت:

- فلت لساني، حكيت له ما جرى لنا مع (الضابط الجديد) يوم الرقص.

تلقف الرجل الغريب قصة سقوط صورة (السيد الرئيس) تحت الأقدام، كتب تقريره المميت، ولم يعد أحد يره منذ تلك الليلة.

- الرجل الغريب كتب تقريراً عنه.

رأي متفق عليه.. !!

* * *

بعد يومين من اعتقال (الضابط الجديد)، فاجأت البلدة قافلة

مركبات غريبة، عملت طوقاً حول بيوت (الفجر)، من بين تلك المركبات الخاصة، مركبة صندوقية الشكل، من بعيد عيون الناس من فوق أسطح منازلها، تراقب مستفسرة ما الذي يحصل، لم تقم ليالي أنس لليلتين متتاليتين، (الفجر) خضعوا تحت حصار صارم لفحص دموي، في صبيحة اليوم الثالث، اندفعت الناس باتجاه المملكة الصفيحية، شاهدت العيون انسحاب كامل للمركبات، وجدوا الباب الرئيس مغلقاً، لم تنفع الطرقات التي تكاثرت على كل شبر من الصفائح، لم يخرج أحدهم، تعالت همهمات، تطورت إلى صيحات، صاح أحدهم:

ـ أقسم بالطلاق، سأزين شواربي نتفاً، لو لم أقل الحقيقة، الحكومة زرقت (الفجر) بسموم إبادة جماعية.. !!

تسلق بعضهم أكتاف البعض، في محاولة مسعورة، لتبيان صحة الخبر، العيون التي استشرفت الداخل وجدت (الفجر) بخير، يواصلون حياتهم المعيشية من غير تبديل في مجرياتها المألوفة، من جديد تعالت الطرقات الوحشية على الألواح الصفيحية من كل جهة، قبل أن يصيح شخص بوجه صاحبه:

ـ لماذا تبقي شواريك يا حيوان، أنهم بخير.

صاح صوت:

ـ ياناس أتركوه، كل يوم يقسم على زيان شواربه، يومياً يطلق زوجته، ألا تعلموا أن (الفجر) ينامون نهاراً.

في تلك الأثناء، تصاعد زعيق مركبة الشرطة، كثير منهم انسحب، تحسباً من رصاصات عشوائية ستنطلق حتماً من قبل

بنادق يدوية قديمة، تشهرها شرطة غير مدربة ليل نهار، توقفت المركبة، هبطت كوكبة متأهبة، تشهر بنادقها باتجاه الناس، كأنها تخوض حرب شوارع، هرولوا نحو الباب الرئيس للمملكة الصفيحية.

مع الطرقات الأولى أطل عليهم شيخ القوم:

- حسناً ماذا وراءكم.

- جئنا نحميكم.. (قال أحدهم) .

- هل نعاود عملنا في الليل.

- لا أعرف.

- من يعرف.

- ضابط جديد في طريقه إلى البلدة.

- حسناً قولوا للناس لا يزعجوننا في النهار، سنحصل على ترخيص جديد من أجلهم.. !!

* * *

في البلدة شاعت شائعة، العدو ألقى على الناس جرائيم إبادة جماعية، كل لسان راح يصوغ الشائعة وفق ما يلاءم مزاجه، أو يتفق مع درجة معرفته.

الحروب الحديثة تختلف عن الحروب القديمة، اليوم الحكومات لا تدفع ناسها إلى آتون المحارق، الحكومات الحديثة تخاف على إنسانها، الإنسان غالي، نفيس، رأس مال مفتوح، لا يعوّض، وجدت سبل حديثة لقتل العدو بشكل مريح، من غير خسائر،

تقوم طائرات خاصة برش مساحيق طيبة المذاق من الفضاء على جيش عدو متأهب لهجوم مباغت، جيش العدو يشعر بخدر الجسد، ترافقه رغبة النوم، الكل ينام، لا أحد يصحو من تلك (الرقدة الكيماوية)، بذلك يكون الجيش المقابل بمنأى من القذائف بعيدة المدى، والمواجهات الفردية بالحراب.

كل فرد يعلن علمه الكامل، يشرح بكثير من الغموض، الفلتان اللا.. معرفي، كيفية قيام تلك الجراثيم، خرق أجساد الناس، الذهاب مباشرة عبر الوريد إلى القلب، يخترق، يبني عالم الفناء، (الجراثيم الحربية) كما شاع تسميتها، تعيش في الماء، يعجز المجهر الطبّي كشفها، تدخل الجسم عبر أي ملامسة لعضو من أعضاء الجسد للماء، لن تنفع المضادات الحيوية، لا عقاقير الطب (العشائري)، لا عصا السادة أصحاب العصمة، لا تشفع تمائمهم.

الشائعات دفعت الناس غلي الماء قبل استعماله، امتنعت كليّاً من تناول الخضر، والسباحة في النهر، حدث لغط، توقعت الناس بروز عصابات جديدة، ستحتال على الناس، مثلما حصل أيام الهذيان الشعبي الكبير، الذي تمخض عن تلك الفئة التي قامت بتحويل (النورة) إلى أقراص عقاقير، قبل إعدامهم في حفلة مرعبة، شاهدها ناس سحلوا قسراً من منازلهم.. !!

* * *

وصلت كوكبة من الناس إلى بناية إدارة البلدة، تجمهروا، بدلوا رأيهم، واصلوا سيرهم باتجاه المشفى، تدخل طبيب البلدة

بناء على توصيات تلقاها ، من وجوه وجدت خطورة الموقف المتأزم، أصرّت ضرورة تدخله لوقف مهاترات هذيانية تستفحل، يجب توجيه الناس نحو شاطئ الصواب، قبل حلول لعنة جماعية قد تودي بحياة ضعفاء أبرياء من الناس، خرج الطبيب من المشفى، عد العدّة لخطبة نارية، سيردع أفواه المتقولين، اللاعبين بأعصاب الناس، سار بمركبته، يشق صفوف الجموع الغفيرة، باتجاه مبنى إدارة البلدة، ركضت الناس وراءه، في الساحة المخصصة للتجمعات الجماهيرية، تصادحت مكبرات الصوت، بدأت تلملم الناس، جاءت الجموع، تركض، تمشي، لا تعرف ما الذي يحصل، وجدوا رغبة الفضول تدفعهم، خرج الطبيب من النافذة، همهم الجميع، مسح يمينه وشماله، ساد صمت كثيف، نقر الطبيب بأنامله الحاكية، فرقعت مكبرات الصوت مخشخشة. . صاح صوت من بين الجموع:

- عوافي دكتور تضرب دجاج، ونحن نلتهم عجاج.

قال الطبيب:

- ياعالم، تتكلمون عن أوهام، ما الذي يجري في بلدتنا، لا جراثيم ولا هم يحزنون، أدعوكم لغلي الماء قبل استعماله، هذه فكرة قديمة، ناجحة لقتل ميكروبات المياه، أشتروا الخضر، الفواكه، اغسلوها جيداً بقليل من مساحيق (التايت)، عيشوا كما كنتم تعيشون، احذروا ضعاف النفوس، قد يلجأ بعضهم لاستغلال الموقف، ويتاجر بأرواحكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. !!

تصاعدت الهمهمات، تحركت الأيدي باستهزاء، الدعوات التي وجهها طبيب البلدة جاءت مغايرة لما أستوعب الناس، أفهمهم، الذي حصل ليس سوى داء قديم يورثه الأب لأولاده، هذا ما توصل إليه عبر متابعات طويلة، قراءة مصادر قام بمجهود شخصي الحصول عليها، ما جرى ليس سوى توقع من قبل (وزارة الصحة)، الوزارة رغبت تعرف، هل الوباء مصدره (الفجر)، كي يتم درء الأخطار المتنامية عن الناس مستقبلاً، العكس حصل، لم تهتد اللجنة الطبيّة لدليل إدانة، ما يجري ليس سوى هذيان آخر، أحدثه فرد لا يعي خطورة عمله، ربما يريد إنبات بلبلة عارمة خدمة للعدو المتربص بالبلد، بعضهم وجد:

- كلامه وراءه دوافع تعبوية، الطبيب بوق السلطة الناعق.

يعرفوه حق المعرفة، رجل له صلة وثيقة بالحكومة، كل أطباء المشفى، الذين سبقوه لم يستلموا المشفى سوى أشهر، وحده بقى لسنوات طويلة، لا أحد يحاسبه، أو يجبره على فعل ما، لم يرسل في مهمة حربية، أو معايشة ميدانية، توصل بعضهم لنتيجة حتمية مفادها:

- أستلم أوامر من السلطة المركزية، لإخماد حرائق الخوف المترعرع في نفوسنا خدمة للحرب.

بعضهم أقتنع، آخرون أعلنوا:

- سنحتفظ بقراراتنا الشخصية لوقتها.. !!

القسم الرابع

لم يتصاعد من مئذنة المسجد نداء صلاة العصر، سؤال تداولته ألسن دائبة البحث عن منابت الفتن:

- ربما حصل مكروه للملاّ (صالح).. (كلام تناقلته الألسن) .

انقطاع التيار الكهربائي ليس مانعاً لرفع النداء، هناك مولد تيّار كهربائي يغذي الجامع أشتراه رجل تاجر، ذلك التاجر صلّى في المسجد، أنتبه لطريقة رفع الأذان عند حصول انقطاع التيار الكهربائي، كان المؤذن شاب رفيع الصوت، يصعد على بناية الجامع، يرفع صوته منادياً الناس للصلاة، واضعاً كفيه على أذنيه، ذلك الرجل التاجر سأل القريبين منه عن سبب رفع الآذان بتلك الطريقة السلفية، اعلموه الموضوع، هزّ رأسه متحمساً. قالوا له:

- الحكومات لا تدعم مساجد الله، مساجد الله قائمة بتبرعات المؤمنين به.

بعد يومين غادر البلدة، عاد معه جهاز يعمل (بزيت الغاز) تجمهر الناس حول الجهاز يوم تشغيله، صوت مزعج مرتفع، رائحة شيء يحترق ينتشر في الفناء، وجدوا أنفسهم يختنقون من رائحة تمزق

أعصابهم، وجدوا حلاً مناسباً، بناء على رغبتهم تم إبعاد (الموتور) المولد للكهرباء إلى خلف المسجد.. !!

* * *

مشت أفواج الناس نحو المسجد، تجمهر خلق حائر، تداولوا القضية مع أنفسهم، فالـ(ملاّ) كان موجوداً في صلاة الفجر.. بعضهم أقسم:

- رأيناه في السوق غير طبيعياً.

تصاعدت همهمات تطورت إلى توقعات، بدأت تستقر في العيون جملة أسئلة حائرة، رفع أحدهم الكلام، قال من غير خوف، تلقفت الألسن كلامه، بعد نصف ساعة شاعت في البيوت:

- الحكومة اعتقلت الملاّ(صالح).

انبرى شخص آخر بعدما شاع جواً من الصراحة.. أقسم:

- رأيت مركبة طويلة تمرق، لمحت عمامة الـ (ملا) عبر الزجاجة الجانبية.

بدأت الألسن تصوغ ما هو ملائم ومناسب للحدث الجديد من أقاويل، تصوغها ألسن تدربت على صناعة الحكايات المقصودة..!!

* * *

وسط حيرة الناس، كان الملاّ (صالح) يرقد في ردهة الطوارئ في مشفى (البلدة) جرّاء فقدانه وعيه أثناء صلاة الظهر.. !!

* * *

بعد تنحيته من (إمامة) جامع البلدة، من قبل الضابط القديم النقيب (مالح)، جرّاء تلبيسه أقاصيص أخلاقية حطّت من قدره، أعتكف الملاّ (صالح)، ملازماً بيته، بعض أنصاره لم يتخلوا عنه، ظلّوا يزاورونه، كونهم يعرفوه حق المعرفة، لم يشكّوا بإيمانه في يوم ما، مهما كانت غرابة الأقاويل وحساسية الحكايات..!!

* * *

بعدما رحل النقيب (مالح)، تسارعت إليه وفود جدران اليقين في أغوارها صلدة، لا تخترقها وسوسات شياطين الأنس، أقنعوه، بضرورة العودة إلى إمامة المسجد، أنتظر بفارغ الصبر، تدارس طلب رفاقه من جميع الجوانب، آخذاً بنظر الاعتبار الوضع العام في البلاد.

زاره الـ(ملاّ) الجديد ليلاً.. قال له:

- غداً أغادر البلدة.
- وهل يعنيني ذلك.
- أنت أولى الناس بالمهمة.
- ولم لم تغادر من قبل.
- اليوم أجد نفسي غريباً عنكم.
- برحيل حماتك غدوت فضلة.
- ربما أنت على حق.
- حسناً القضية تحتاج إلى مكاشفة.
- لست أشك فيك مطلقاً.

- أنا واثق أن الأمور ستتضح في وقتها.

- لا عليك بما حصل، هناك من حاول الحط من قدرك.

- لا أحد غيره حاول في ذلك.

- أنه الآن خارج اللعبة الحياتية في البلدة، كان له التأثير الواضح في عرقلة حياتك الدينية.

- لنا عداء قديم يعود لسنوات طويلة.

- أعرف ذلك.

- تعرف ذلك.

- سرد لي بعض ما كان بينكما.

- ربما لم يقل ما هو حق.

- هو الآن يعاني من وباء غريب.

- تلك هي نهاية الأشياء التافهة.

- لكي لا نطيل كلامنا، غداً سأكون خارج البلدة.

- يرافقك الله أينما تحط.

- ليست هذه القضية التي جئت من اجلها.

- لا أعتقد وجود قضايا بيننا.

- أعتقد أنك تبحث عنها، قضيتك الرئيسة.

- لا يشغلني في الوقت الراهن سوى ديني.

- ربما في الغد ستكتشف صورتك الحقيقية، غداً.. فقط غداً..!!

* * *

بارحه الـ (ملاّ) الجديد..

قعد ينشغل بما دار من حوار بينهما، وجده، يخبأ شيئاً راوغ كثيراً كي يهرب من وضوحه، تساءل عن سبب مجيئه، سبب رحيله المفاجئ عن البلدة، كانا على خصام متواصل، لم يصلُ أحدهما خلف الآخر، هو أبن البلدة، فيها ترعرع، شرب أصول الدين قطرة قطرة، لعبت غربته في تحديد مساره في الحياة، قبل أن يجد لنفسه خصماً جاء من بلدة بعيدة، الناس تعرف.. جيء به من قبل السلطة الجديدة لتغيير المفاهيم العتيقة في ذاكرة الناس، رجل صغير لم يجد من تآلف معه، حتى الذين كانوا من مصلي الصلوات الخمس في المسجد، وجدوا لأنفسهم أعذاراً معقولة كي يغيبوا أغلب الصلوات اليومية، أخذه التفكير بعيداً، لم يجد شاطئاً يستلقي عليه كي يقتنع بيقين ثابت، يجبره أعادة حساباته، وقراءة جديدة أوراق إيمانه، بحثاً عن فرصة ملائمة تعبد طريق عودته إلى قيادة الجمع المؤمن، (ملاّ) البلدة من جديد.. !!

* * *

الملاّ (صالح)..

ذلك كل ما تعرفه الناس، لم يسأل إنسان نفسه ذات يوم، أو يلقي سؤاله على آخر، بحثاً عن أصله الحقيقي، كون الناس تعتبر أمثاله هبات من السماء لنشر الوعي الشرعي، قيادة الجموع الضالة نحو سبل الفلاح، رجل يفرض خشوعاً، هادئ الطباع، عالم بأصول الدين، يشهد على زواج الناس، قليل جداً ممن يذكر

تفاصيل متناثرة حول أصله، لكنهم غادروا البلدة أو الحياة، وحده دلاّل (جلبلاء) مقطوع الخلفة، يخزن في ذاكرته الكثير مما يعود تاريخاً غير مكتمل الفصول حول أصل الملاّ (صالح)..!!

* * *

في يوم لا ينساه خرج باكراً، وجد شاباً يقود طفلاً، أوقفه الشاب:

- ياأبا (صالح) وجدت هذا الصبي يبكي قرب بيتنا.

- هل تعرفه.

- لو كنت أعرفه لما أتيتك به.

- حسناً لنفتتح به يومنا هذا.

مشى (الدلال) داخل السوق، جاب الأزقة، بحثاً عن ذوي طفل غريب، ظهراً عاد بالطفل إلى منزله، بقى الطفل عندهم يومين قبل أن تبادر زوجته:

- لنتخذه ولداً عسى أن يقتل وحشتنا.

ذات يوم عاد الولد يبكي، لم يذعن الطفل لمناغاة المرأة، عجزت عن فهم شيء مما يغمغم به، عاد زوجها.. قال له:

- لم تبكي بني.

- أنت لست أبي.

- من قال لك هذا.

- الأطفال يرمونني بالحجارة، ينادونني ابن (زليخا اليهودية) .

تلاقت نظرات الزوجين بحثاً عن بر شاطئ، فهمت العيون جملة واحدة:

- لابد عائلة مهاجرة قذفت طفلها خارج أسوار رحمتها.

كانت الحكومة في تلك الأيّام تطهر تراب البلاد من الجاليات اليهودية، في حملة شعواء بعدما أشيع أنهم يتجسسون لصالح (إسرائيل) أعدم منهم جملة رجال والبقية الباقية تم ترحيلهم قسراً.

قال الدلاّل لزوجته:

- سنتخذه ولداً مهما كانت النتائج، نربيه على ديننا.

- الناس ينادونك بـ (أبو صالح).

- ليكن أسمه (صالحاً) كما تشتهي ألسن الناس.. !!

* * *

الناس تعرف، أنه عاش في بيت (الدلاّل) ردحاً من زمن طفولته، لم يرغبوا التقول، أو العروج لتلك التفاصيل القديمة، مهابته جعلتهم ابتلاع تلك الحكايات بشيء من الخوف.. !!

* * *

يستذكرون يومه الأوّل، لحظة صعد على منبر المسجد، ألقى خطبة مشهودة، ظلّت أفواه الناس فاغرة، تكاد تشك بما تسمع، كلام معسول مقترن بآيات من الذكر الحكيم، في ذلك اليوم كانت الناس داخل المنازل تعيد الكثير من تعاليم شرعية قالها الملاّ (صالح)، غيّرت أنفسهم فجأة، صار من يومها رجلاً محترماً

مهاب الشخصية.. !!

* * *

مشهد آخر ظلّ عالقاً في أذهانهم، تلك الظهيرة (الحزيرانية) يوم وصوله إلى البلدة، هبط من مركبة (الباص الخشبي)، أو ما كانوا يسمونه (دكة نجف)، شاب بمسوح ورع، يحمل حقيبة بيده، تقدم منه دلاّل البلدة، أحتضنه، قاده إلى منزله، بقى يومين في ضيافته.. قالت زوجته:

- ألسنة الناس لن ترحمنا.

- أعرف ذلك، وجدت له منزلاً يليق بمقامه.

في اليوم الثالث قاده إلى البيت العائد إلى المسجد، كان المسجد يومها بلا (ملاّ) مذ تم تشيده من قبل تجّار جاؤوا في مواسم التجارة، تبرعوا بالمال، أشرفوا على الأساس قبل مغادرتهم، تاركين رجال ثقات لتكملة الصرح، يومها كانت الناس تصلي فرادا، ليس هناك (جمعة وجماعات)، قدّمه الدلاّل للناس، استبشرت به خيراً، من يومها صارت أفئدة الناس تهوي إليه.. !!

* * *

الحكايات التي تناثرت حوله بدأت من يوم مجيء (الضابط القديم) النقيب (مالح)، حدث بشكل لافت للنظر، فهم يعرفوه رجل بلا دين، جاء إلى المسجد يوم (جمعة) جلس بين المصلّين، تم رفع الأذان، صعد الـ(ملاّ) على المنبر، رأوا كيف أنسحب الضابط

(مالح) من بين الناس، بعضهم وجد في ملامحه علامات غاضبة، ذلك الفعل لم يثر حفيظة أحد، الأيام التالية كشفت الكثير من الملابسات اللاحقة، بيّنت خبايا تلك الأوراق الغامضة..

الناس تيقنت:

ـ السلطة الحاكمة الجديدة تكره (الدين).

من أجل ذلك تحارب أصحاب اللحايا، من يتواجد دائماً في المسجد يلقى في خانة المتآمرين، بدأت معارك فعلية ظاهرة بين السلطة و(الدين)، يوم تم تمرير أمر سرّي للرجال، عدم نصب خيام للموتى، منع رفع مكبرات الصوت لقراءة (القرآن الكريم)، وجوب دفن الموتى بلا جعجعة، ممنوع لطم الصدور، العالم صار فوق القمر، والموت حالة ليست جديدة على البشرية، الموت مرحلة انتقالية من دار فانية إلى دار باقية، صاحب الميت يمكن استقبال في بيته من يروم تبادل التعازي والمواساة معه، تطورت القضية لتصل إلى عصب مهم في تاريخ البلدة، فالناس تعودت عبر كل السنوات الماضية، في يوم العاشر من شهر (محرم) القيام بمسيرات شعبية كبيرة، تندد بمعشر الظلم، تطالب بنصرة المظلومين، تمشي مواكب دامعة العيون، ترفع رايات ملونة، يلبسون ملابس سوداء، طالقين لحاهم.

في الصباح تسير المواكب، مواكب تضرب ظهورها بـ(الزناجير)، مواكب تضرب رؤوسها بالقامات، مواكب تلطم صدورها بباطن الأكف، تسهر الناس ليلاً لعمل (الهريسة)، في الصباح تتدافع الناس، تحمل الأواني والقدور لتأكل (هريسة) حارة طيبة.

تم تعميم القرار السرّي للحكومة، منع تلك الظاهرة الشعبية، بدأت الناس تعد العدة لحياة جديدة خالية من الود والحنان والتكاتف الشعبي، بدأت البوادر الأولى مع هطول أضخم مطر عرفته الناس، رافقه مجيء أقوام اللهو، الرقص، الأنس، إلى البلدة، قبل أن تندلع نيران حرب كونية مصغرة مع دولة جارة من غير سبب مقنع.. !!

* * *

بين الناس شاعت حكاية نوم الـ (ملاّ) مع بائعات اللبن، داخل السجن، كثير من أهالي البلدة لم يصدقوا تلك الحكاية، اعتبروها حيلة (مفبركة)، فالـ(ملاّ) رجل غير متزوج، ترك الدنيا من أجل الآخرة كما هو معلوم، لم يفكر بزوجة، لم يتجرأ أحد سؤاله حول عدم تكملة مشروعه الديني، كانت الناس تراقب ما الذي يجري بين ضابط البلدة وبين الـ(ملاّ)، دائماً يجدون الـ(ملاّ) مساقاً قسراً، أو طوعاً، نحو تلك البناية، هناك تحصل محاورات سريّة، لم يطلع عليها احد، من عينيه كانت الناس تجد بعض شوارد اللا.. رضا، لكن الـ(ملاّ) واصل كلامه كما كان، لا يخشى من أحد، ظلّ يحارب منابت الفساد، يحذر بكثير من الشجاعة، مغبة السقوط في برك الشيطان، دائماً يؤشر تلك البرك سواء في خطبه،أو جواباً لسؤال يطرحه عابر سبيل، أعتبر (الفجر) قوم فساد، فهم لا يتمسكون بحبل الله، لا يسيرون وفق مناهج السنّة، لا يتعاملون وفق أصول الشريعة، وصفهم ذات خطبة:

- جنود (إبليس) عليهم اللعنة.. !!

الغاية من تهجمه المتواصل، دفع الناس عدم الاختلاط بهم، ذلك ما أثار غضب الضابط، الذي أعلن جهاراً:

- سأحميهم وفق أوامر صادرة من السلطة المركزية.

كان الضابط كل ليلة يجلس في الصف الأمامي للمسرح، شرطته يواصلون الحراسة، خشية الصبيان الذين تكفلوا مهمة أوّل ردود أفعال ذويهم، ألقوا وابل الحجر على الناس الجالسين في لحظات الأنس، تدخلت الشرطة، فرضت نطاقاً أمنياً أمّنت عدم وصول حجارة واحدة مقذوفة حتى لو ألقتها يد أمهر قاذف حجر، الـ (ملاّ) وجد نفسه مساقاً إلى السجن، أعتبر ذلك امتداداً لصبر المؤمنين من قبله، نالهم الظلم، الإقصاء، من قبل حكّام ظلاّم، ملوك جبابرة، عبر تاريخ طويل ما زال يتواصل، تم تمرير تلك الحكاية عنه، حكاية مواقعته بائعات اللبن، أعتكف الـ (ملاّ) وعاد، تمرض وخرج من المشفى، أعتزل الناس، ها هو يعود من جديد إلى المسجد، بناء على رغبة أصدقائه الخمس، الذين ظلّوا يلازمونه، سراً وعلناً، يمدونه بمعوناتهم ومعنوياته.. !!

* * *

تحسس الناس قضية تواجده على المنبر، لم يكن متردداً، أو به نبض خجل، خوف، خطب خطبته، لم يتطرق لمجريات الأمور، صلّى بالناس، من يومها عادت الأمور إلى البلدة كما كانت.. !!

* * *

عرف الناس موجز الحكاية من دلاّل البلدة، حكاية نوم الـ (ملاّ) مع بائعات اللبن، صاح في الناس، تجمهروا، توقعوا حاجة جديدة سيعلن المزايدة عنها بصوته القوي الطويل، بينما مناداته لم يكن وراءه فتح المزاد العلني لبيع حاجة، هرع الناس، تجمهروا حوله، صاح من جديد:

- ياعالم الحكاية ملفقة، لا تصدقوا الكلام، اعترفت لي بائعة اللبن (جاسميّة)، الضابط القديم (مالح) أمرهن بقول الزور، مقابل تحريرهن من السجن.

تصاعدت الهمهمات، انسحبت الجموع تعيد الحكاية، تحاول إيجاد منفذاً يريح الأعصاب، بعضهم سار باتجاه بيت الـ (ملاّ)، طرقوا الباب، خرج مبلل اليدين، سحنته ترزح ماء وضوءه، قطرات تهبط من خلل لحيته، لم يتفاجئ بهم، دائماً تزحف الناس إليه، عندما تحاصرهم قضية فقهية.

قال واحد من الجمع:

- مولانا.. أنت نقي نقاوة مياه الينابيع.

شكر الـ(ملاّ) خالقه، بسمل وتمتم.. قال:

- ومن قال خلاف ذلك.

- سمعنا الحكاية كلّها.

- أية حكاية يا عباد الله، هل هناك حكاية جديدة.

- حكايتك مع بائعات اللبن.

- أعوذ بالله، لا تلوثوا أفواهكم بمضلات الفتن.

توقف المتكلم، بدأت الأيدي تصافحه، لم يجد سوى قوله:

- فأمّا الزبد يذهب جفاء.. !!

انسحبوا.. من يومها صارت العيون تبحث عنه، تتبرك برجل شجاع ينطق الحق جهراً، رغم ما جرى له، واصل قيادة مركبة إيمانه في عباب الظلمات بيقين راسخ.. !!

* * *

سمع الـ(ملاّ) طرقات على الباب، كانت الساعة تحديداً الثانية وعشرة دقائق من ظهيرة يوم السبت، بعد يومين من اعتقال (الضابط الجديد)، قام، توجه إلى الباب، وجد بائعة اللبن المعروفة (جاسميّة) واقفة، كان الخوف يتلاعب بوجهها، لم يكن على رأسها قدر لبن، كانت واقفة تريد مشورة، أو وراء مجيئها شيء يكاد يفضح نفسه، وقف لا كلام له، بادرت هي بالكلام:

- أتيت إليك لأقول الحقيقة.

- أية حقيقة.

- أجبرنا على تشويه سمعتك.

- عمّاذا تتكلمين ياأمت الله.

- عن الحكاية القديمة حولك.

- أية حكاية.

- يوم سجنك النقيب معنا، أجبرنا على إشاعة تلك الحكاية عنك.

- ماذا طلب منكن.

- ما سمعته من الناس بخصوص (.........) .. !!

لم يجد الـ(ملاّ) كلاماً مناسباً في خطبته الدينية، حمد الله وشكره، إذ أخرجه من براثن الوقائع المفسدة، كان الفرح يهل من سحنته، لسانه ينطلق بسلاسة، الكلمات تتزاحم في رأسه، ففي صبيحة ذلك اليوم، تفاجأت البلدة أن (الفجر) رحلوا، والحرب لم تعد تشمل المدن بالقنابل، البيانات العسكرية أراحت أعصابهم، لأن الجيش أجتاز الحدود لمسافات كبيرة، القنابل صارت لا تصل، ليست هناك طائرات مغيرة، المضادات الأرضية بالمرصاد، طيران البلد صارت دروع صادمة لها.

تم إقامة الصلاة، وحد الصفوف وبدأ يصلي بهم، بعدما أكمل الركعة الأولى من الصلاة، وقبل أن يقوم الـ (ملاّ) للركعة الثانية، وجدت الجموع أنفسها ساجدة، ليس بوسع أحدهم النهوض ما لم يهتف فم الـ(ملاّ):

- الله أكبر.. !!

طالت السجدة، خشوا من إبداء فعل منافي للشريعة، قد يبطل صلاتهم، مضت الدقائق تتباطأ، بدأت الأفواه تعد الأرقام كي تخمن طول السجدة، ربع ساعة تقريباً كررت الأفواه كل التسابيح والأدعية، قبل أن يصرخ فم ساجد:

- سبحان الله.. !!

رفعت الرؤوس، كانت الأشياء غائمة في العيون، دوّار يغتصب الرؤوس، سقطت عيون الصف الأمامي على الـ(ملاّ)، كان نائماً، أو يسجد سجدة نهائية، استعجلوا التسليم، هرع البعض إليه، رفعوه، وجدوه يبحلق فيهم، يتنفس بحشرجة، ساكن العينين،

غير ميت.. !!

* * *

أمام المشفى تجمع خلق كبير، رغبوا معرفة تطورات صحته، أبدوا استعدادهم للتبرع بالدم، إذا تطلب الأمر، بعد يومين أعلن الطبيب:

ـ الملاّ (صالح) يعاني من نفس أعراض الداء الغامض.

كلامه العفوي أوقد ثقاباً في غابة مشاعر يابسة، من جديد بدأت الناس تغمغم، تنثر بذور الخوف، متوقعين داء خبيثاً غامض المصدر يتربص بالناس، لا يهاجم علناً، إلاّ في أوقات مباغتة، يستدرج ضحاياه، يلقيهم صرعى، قبل أن تتلقفهم يد السلطة لتتقلهم إلى محرقة نائية.. !!

* * *

خابت جهود الطبيب هذه المرة، عجز أيجاد من يصغي لكلامه، خيط القضية تحرر من بين يديه، لم يعد هناك من يريد . يفهم الأمور، اندفعت الناس، توجهوا إلى الصيدلية الوحيدة في البلدة، وجد الصيدلاني نفسه محاصراً، مجاميع ناس تزحف نحوه بحثاً عن دواء يوقف حالات الإغماء المفاجأة أو(سوبر.. دواء)، تخليط خاص يوقف زحف أي داء مهما كانت شراسته، لم يضيّع الصيدلاني تلك الفرصة التاريخية، الكل يريد دواء، باعهم ما وجده وفق قناعته بلسماً شافياً من جائحة الهوس، جلس في الليل يعد تخليطات من (المشاريب) طاحناً وفق ما يجده من حبوب،

يدسها في عبوات صغيرة.

الناس تلقفت تلك الأدوية، راحت تحقن نفسها بعقاقير الصيدلاني المعجزة.. !!

* * *

بعد يومين تم نقل شخصين إلى المشفى، كانا يعانيان من حالة إغماء دائمة، لم يتوصل الطبيب إلى ملابسات حالتيهما، أعلن بكل يقين أنهما مصابان بالهوس أو (الوهم) المرضي، حقنهما بماء مالح، قاءا ما في جوفيهما من مادة صفراء، أعيدا إلى منزليهما، بعد يومين على شفاءهما، تفاجأت البلدة بشنق الصيدلاني.. !!

* * *

الشرطة توصلت إلى الجاني من غير استجوابات، (الضابط الجديد) لم يصل إلى البلدة بعد، قال شرطي لطبيب المشفى:

- هو تسبب في شنق نفسه.

قال الطبيب:

- لا أفهم قولك.

- كان يبيع للناس دواء مغشوشاً لوقف هذياناتهم.

من خلال البحث والتقصي، عرف الطبيب، وراء شنقه يقف من أصيب بحالة عرضية طارئة، تم التشاور ما بين الشرطة وبينه، خرجت الشرطة من تلك المحاورة، اتجهت إلى منزلي المصابين بالإغماء، تفاجئوا بموت أحدهما، قادت الآخر، لم يحتمل الضربات التي انهالت عليه، أعترف:

ـ لست وحدي من فعل ذلك.

في ذلك اليوم تم سحل خمسة أشخاص تشاوروا في الأمر، تسللوا ليلاً إلى منزل الصيدلاني بعدما رصدوه وحيداً بسبب سفر زوجته وأطفاله إلى خارج البلدة، لم يبد ردود أفعال، طرقوا الباب، خرج ليواجه أربعة أشخاص يحملون جسد مصاب، أدخلهم إلى غرفة الضيوف، بينما كان يفحص النائم، حبل متين التف حول رقبته، تعذر عليه الصراخ، كانت اليد قوية تشد بعنف عنقه، تركوه جثة هامدة.

أمّا الرجل الذي مات برئوه من التهمة.. !!

* * *

نست الناس قصة الـ(ملاّ) انشغلت بحكاية شنق الصيدلاني، قبل أن ينتشر خبر نقله إلى العاصمة، حكى أحد الشبّان راح يقسم:

ـ لمحت وجهه، ينظر عبر الزجاجة الجانبية، كان يبكي.

اتفقت آراءهم على مصداقية الخبر، من يومها عاد المسجد إلى ما كان عليه، بدأت الناس تبحث عن رجل يمتلك المعرفة بالشريعة كي يصلّي بالناس جمعة وجماعات.. !!

* * *

الـ(ملاّ) كان في رحلة طويلة، لم يشعر بتعب الرحلة، فاقداً حواسه، بعد مسيرة طويلة وقفت المركبة أنزلوه، قاده شخص، وضعه داخل زنزانة، متعباً، نام على سرير أسفنجي، عند منتصف

الليل أفاق من نومه، كان يشعر بدوّار ثقيل، بحث عن ماء كي يمنح وجهه بعض البرودة، لم يجد سوى الباب الحديدي المقفل، صمت المكان، تقدم من الباب، وجد فتحة صغيرة بحجم علبة سيجارة، مدّ عينيه، لا شيء سوى الصمت، رغب يعرف. . أين هو الآن، كيف وصل، متى، من نقله إلى هذا السجن، عاد، استلقى على سريره، تذكر أنّه لم يصلِ، قام. . وجد التيمم يجزي طالما الماء غائب، ضرب بباطن كفيه على الأسمنت الصلب، تيمم، صلّى على الأرض الصلدة، عاد، استلقى على سريره، راح يستذكر شيئاً من حياته القاسية سلوى لنفسه.. !!

* * *

دائماً كان يجد نفسه أمام غريمه، رجل صلب، صارم النظرة، يشعره أينما يجابهه برعشة قلب، في معسكر تدريب المشاة كان مساعداً للآمر، أذاقه عذاباً لا يطاق، زجه في السجن، جعله يزحف على صدره، حاول، يعرف أو يجد سبباً لعدائه، وجد محاولاته مضيعة لوقته الثمين، ترك أمره إلى الله، أعتبر القضية امتحاناً من امتحانات المؤمنين في رحلتهم للوصول إلى دار القرار النهائي.

الضابط كما صوّره، شاب متزمت قاسي الطباع أينما يكن يكون، سادي الشخصية، وجد سعادته في تعذيبه، أمّا كيف إلتقاه، لم يعد يتذكر ذلك، كل شيء حدث في زمن ليس بقريب، لم يجد وقتاً يصرفه على ومضات الدنيا الفانية، وجد

نفسه جندياً لأداء خدمته الإلزامية، آتياً من (كلية الشريعة) واجه صعوبة في حياته التدريبية من قبل الضابط، أبدى كل تواضعه، تمسكه التام بحبل اليقين الذي وثق إرادته به، تسرح بعد قضاء مدة خدمته الإلزامية، كانت المفاجأة تترصده، بعد توليه إمامة المسجد في بلدة (جلبلاء)، وجد الضابط من جديد أمامه، رآه من بين المصلّين، نهض، ترك المسجد في يوم (جمعة)، لم يتماسك، داهمه غضب إيماني، هاجم المتلكئين، الكسالى، الساهون في صلواتهم، في تلك اللحظة أعد نفسه لحرب جديدة من نوع آخر سيتواصل بينهما، لم يشعر بخوف كونه أقوى مما كان، لكن الحيطة مطلوبة في أزمنة الحكومات الجديدة، كل كلام يفسر وفق الضد، يجب مواصلة يقينه بكثير من التجلد، وطويل صبر، جملة أفكار دارت برأسه.

بعد يومين من خروج الضابط من صلاة (الجمعة)، تفاجأ الـ (ملاّ) بشرطي يستدعيه، لم يبد اعتراضاً.. قال له:

- في الغد أكون هناك.

في اليوم التالي ذهب الملا (صالح) إليه، كان متهيئاً للمقابلة، دخل وسلّم، الضابط لم يرد سلامه، ظلّ يواصل نقر الطاولة بأنامله، كان ينظر بشيء من السخرية، قال الـ(ملاّ):

- أعتقد أنك دعوتني لبعض الأمور.

قام النقيب (مالح) من وراء الطاولة، مشى خطوات.. وقف لصقه.. قال:

- بإمكانك أن تجلس.

جلس الـ(ملاّ) على أريكة خشبية، عاد النقيب إلى كرسيه..

قال:

- أنت دائماً أمامي.

- إرادة الله لحكمة لا نعرفها.

- أنت تدرك الوضع الجديد في البلاد، لا ينبغي أن تواصل خطبك كما ترغب .

- الخطب عبر ومواعظ لتصحيح مسارات الناس، ليس لتأليبهم وتخريبهم.

- الناس تفسر خطبك كما تشتهي.

- أنا أحمل مسؤولية الناس على عاتقي، علي توجيههم وتثقيفهم بأصول الشريعة.

وجد الضابط جملة على لسانه:

- حسناً أنت تهجمت علي، أنا أمثل الدولة في البلدة.

- تمنيت أن لا تترك الصلاة.

- كنت أشكو من داء باغتني في تلك اللحظة.

- الناس فهمت كما اشتهت.

- أحترس في خطبك.

قام الـ(ملاّ) من المقعد، وقف أمام الضابط الذي ظلّ جالساً. .

قال:

- لا أعتقد لديك المزيد من الكلام.

هز الضابط رأسه أيضاً.. قال:

- ربما سنجد كلاماً طويلاً فيما بعد.. !!

القسم الخامس

وصلت لجنة طبية بعثتها (وزارة الصحة) إلى البلدة، لأجراء تحقيقات موسعة، عن وباء طارئ، خبيث أصاب ثلاثة وجوه من وجوه البلدة، ضابط برتبة نقيب، راقص (غجري)، (ملاّ)، تبين من خلال الكشوفات الطبية، أن الدم الذي يسري في أجساد الثلاثة من صنف واحد، لابد أنهم من عائلة واحدة، خلال خمسة أيام واصلت البعثة تدوين أقوال من يعرف شيئاً عن المصابين الثلاثة، تم الاستعانة بـ(دلاّل) البلدة للكشف عن أوراق الـ(ملاّ)، أقوال كثيرة قيلت لم تتفاعل معها أعضاء لجنة التحقيق، وجدتها سير حياة عادية لا علاقة تربطها بأعراض الوباء، كان مطلبهم الأساس، سبل إيجاد عائلات المصابين، كون الوباء وراثي، هذا ما تأكد بعد استشارة طبيب أجنبي، جاء موفداً إلى البلاد، اصطدمت اللجنة بأقوال خطيرة، تتفوه بها ألسن البعض من الشباب، تحديداً تلك الحكاية القديمة للـ(ملاّ) مع بائعات اللبن، جاءوا بـ(جاسميّة أم اللبن)، حجزوها ليومين تحت فحوصات طبية دقيقة، أطلقوا سراحها بعدما تأكدوا خلوا جسدها من تلك الفايروسات المتوقعة، تم وضع (الفجر) تحت حراسة مشددة، أجروا كشوفاتهم، قبل

التطرق إلى أصل الرجل النحيف، أعاد شيخ (الغجر) لهم ما قاله لـ (الضابط القديم) سابقاً، عرجوا بكلامهم إلى علاقة الضابط بهم، اعترفوا:

ـ الضابط كان يميل لأثنين منّا، الرجل النحيف و(غزالة).

توقعوا. القضية لابد أن تبدأ من(غزالة)، ربما تنتهي بها أيضاً، وجدوها غزالة تستحق أسمها، لم تبد أية محاولة لف أو دوران في كلامها، جلست على كرسي بلاستك أمام خمسة رجال ببدلات حكومية، طرح أحدهم سؤاله:

ـ ياغزالة.. سنتعبك معنا قليلاً.

ـ ماذا تريدون أن أفعل، هل ترغبون برقصة (هجا) أو (جوبي).

صرخ أحدهم:

ـ رقصة.. !!

خافت البنت، بحثت عن نجاة من العيون التي راحت تمطرها بالنار.. قال أحدهم:

ـ ياغزالة.. نريد أن نعرف علاقتك بالنقيب (مالح) والرجل النحيف راقصكم.

تشجعت البنت:

ـ كيف هو رفيقنا.

قال أحدهم:

ـ أنه بخير، سنرجعه لكم إذا حكيتِ بصراحة.

قالت:

ـ ماذا تريدون أن أحكي لكم، سأقول كل ما تريدونه مني.

قال أحدهم:

ـ ما هي علاقتك بهما.

قالت:

ـ الضابط رفيق ليلنا.

قال أحدهم:

ـ والرجل النحيف.

قالت:

ـ هو مثل أخينا.

أجاب أحدهم:

ـ لا نريد هذا يا غزالة.

قالت:

ـ أنتم تريدون علاقتي بهما.

قال أحدهم:

ـ ما هي حدود العلاقة بينكم.

أجابت:

ـ الرقص والأنس.

قال أحدهم:

ـ حسناً ياغزالة، هل تعرفين (أبو سمرة).

أجابت:

ـ ومن هو (أبو سمرة).

قال أحدهم:

ـ ناس تقول أنه سهر عندك ليلة موته.

أجابت:

- نعم نام عندنا ، وجدناه في الصباح ميتاً.

قال أحدهم:

- هل عرفتِ منه شيئاً.

أجابت:

- كان من أهالي البلدة ، رحل بعيداً ، عاد ليموت فيها.

قال أحدهم:

- هل تكلّمت معه.

أجابت:

- كان يشكو من داء غامض، صرف ماله، لم يفلح في القضاء على دائه.

قال أحدهم:

- الم يحكي لك عن مرضه.

قالت:

- كان المرض يداهمه بين فترة وأخرى.. !!

* * *

ليلة سهر (أبو سمرة) في البيوت الصفيحية، شعر بالمرض يباغته، غادر الجميع، ظلّ يبحث عمن يسعفه، كانت (غزالة) تنظر إليه، سقط، أسعفته، نقلته إلى غرفتها، ظلّ (أبو سمرة) فاقداً شعوره لوقت طويل، قبل أن يسترد وعيه.. تمتم:

- أين أنا.

- أنت هنا معنا.

- هذا ما أريد.

- هل تشكو من مرض.

- أشعر بتحسن طفيف.

- هل أنت من هنا.

- أنا من هنا.. أنا لست من هنا.

لم يدع (أبو سمرة) الفتاة تحتار أكثر مما احتارت. . باغتها:

- كنت هنا، تعرفني الناس، صلت وجلت في شعاب الأحراش والبساتين بحثاً عن الخنازير، قبل أن أصاب بهوى (يهودية) أخذتني من بين أحضان زوجتي (هاجر)، تزوجنا، ورزقنا بثلاثة أطفال.

سكت (أبو سمرة) عن الكلام، دمعت عيناه، حاولت (غزالة) إزاحة دموعه.. دفع يديها.. تمتم:

- فتشت كثيراً عنهم، قالوا: (اليهود) تم طردهم من البلاد من قبل الحكومة الجديدة.

- هل أخذوا أطفالك.

- كانوا يشكون من حالة مرضية تأتيهم دائماً، قالوا :انه وباء الخنازير.

كان ذلك آخر كلامه، استلقى فجأة، نام بين يدي الغجرية (غزالة) وإلى الأبد.. !!

* * *

القسم الأخير

مات الملاّ (صالح)..

مات النقيب (مالح)..

مات الرجل النحيف (فالح)..

كانوا قبل موتهم في ردهة كبيرة، وجد الـ (ملاّ) نفسه وجهاً لوجه مع النقيب.. تمتم:

- هذا لقاء آخر بيننا.

- ربما هو اللقاء الأخير.

- أشعر أنه اللقاء الأخير، على المرء أن لا يرحل عن هذه الدنيا وعلى كتفيه أوزار كبيرة.

- ليس هذا أوان خطبة يا مولانا.

- أنت عذبتني كثيراً.

- لم تكن بمشيئتي، عشت تحت ضغط ظروف قاهرة.

- حين علمت أنك أعطيتني من دمك، غفرت لك.

- لم تكن تستحق عذابي.

- لنرحل بسلام، ليست بيننا خصومات ننقلها معنا إلى عالمنا الآخر.

رأى الـ(ملاّ) كيف دمعت عينا النقيب (مالح)، أشفق عليه، أزاح الضابط دموعه. . تمتم:

ـ سامحني، عشت من غير أب ولا أم.

سكت الـ(ملاّ)، شعر بنعاس يغشاه، كان الوباء يضغط، نام عميقاً، نام.

لم ينهض بعد نومه.. !!

* * *

شعر الضابط بحزن مفاجئ حين رأى الرجال ينقلون جثة الملاّ (صالح) إلى خارج الردهة، شعر بتنمل يسري في جسده، بكى قليلاً، نام.

لم ينهض من نومه.. !!

* * *

مات الرجل النحيف (فالح) وراء موت الاثنين بيوم واحد.. !!

* * *

النهاية

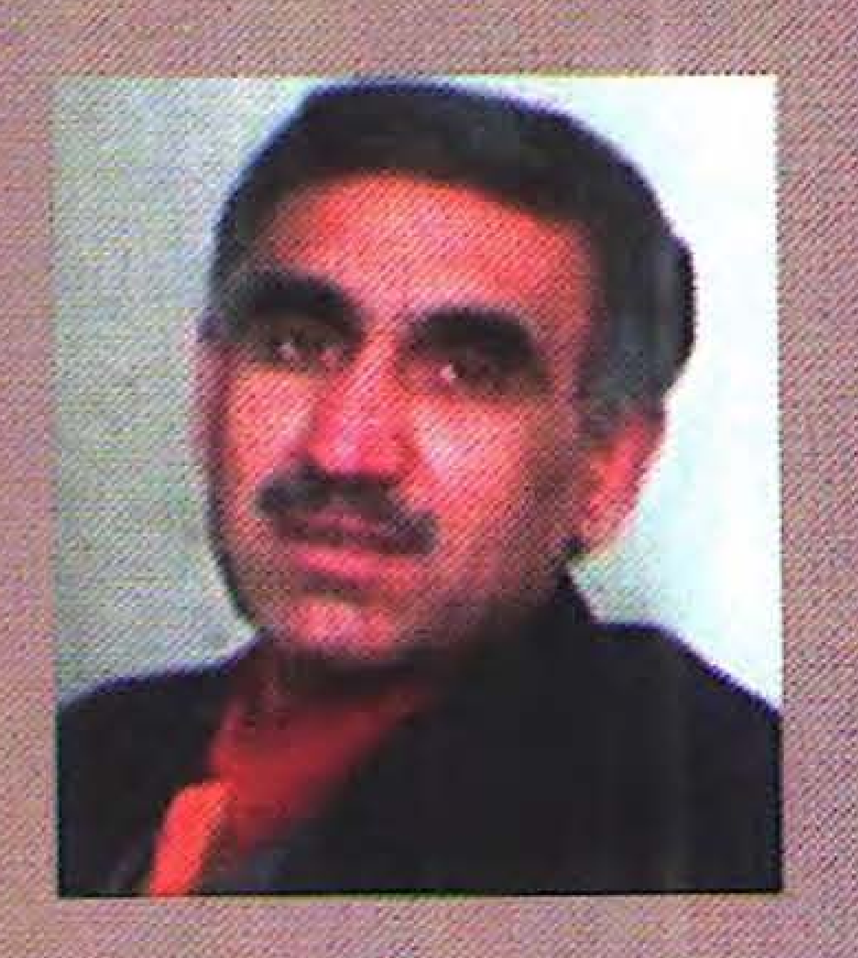
ذات أصيل، وقفت ثلاث مركبات أمام إدارة البلدة، توقعت الناس جثث شهداء، مثلما يحصل كل يوم، البلدة منذ بدأت الحرب تستقبل مواكب الشهداء، قضية الجنائز الثلاث اتضحت، حين أعلن (عامل الشاي) في إدارة البلدة، أنها جثث النقيب (مالح) والراقص الغجري (فالح) والملاّ (صالح)، هرعت الناس وتزاحمت، بدأ موكب التشيع صوب المقبرة الجديدة لبلدة (جلبلاء)، تم دفن الجثث الثلاث في نسق واحد، بشاهدة واحدة كتب عليها:

(هنا يرقد ـ الملاّ صالح والغجري فالح والنقيب مالح ـ غرباء سكنوا البلدة، ماتوا غرباء فيها).

أمام تلك (الشاهدة) (شاهدة) قبر وحيد كتب عليها:

(هنا يرقد صائد الخنازير ـ أبو سمرة ـ جاء غريباً إلى البلدة، مات بداء غريب).. !!

* * *



تحسين كرمياني

قاص وروائي وكاتب مسرحي

عضو اتحاد أدباء العراق

صدر له:

- (هواجس بلا مرافئ)..مجموعة قصصية..دار الشؤون الثقافية العامة/ سلسلة ثقافة ضد الحصار. 2001.
- (ثغرها على منديل)..مجموعة قصصية..دار ناجي نعمان/لبنان/2008.
- (بينما نحن..بينما هم)..مجموعة قصصية..دار الينابيع . دمشق . 2010.
- (الحزن الوسيم)..رواية..دار الينابيع . دمشق . 2010.
- (بقايا غبار)..مجموعة قصصية..دار رند . دمشق . 2010.
- (بعل الغجرية)..رواية..دار كلمة . مصر 2010.
- (قفل قلبي)رواية..دار فضاءات . عمّان . 2011.
- (خوذة العريف غضبان)..خمس مسرحيات..دار رند . دمشق . 2011.
- (من أجل صورة زفاف)..مسرحيتان..دار رند . دمشق . 2011.

الجوائز:

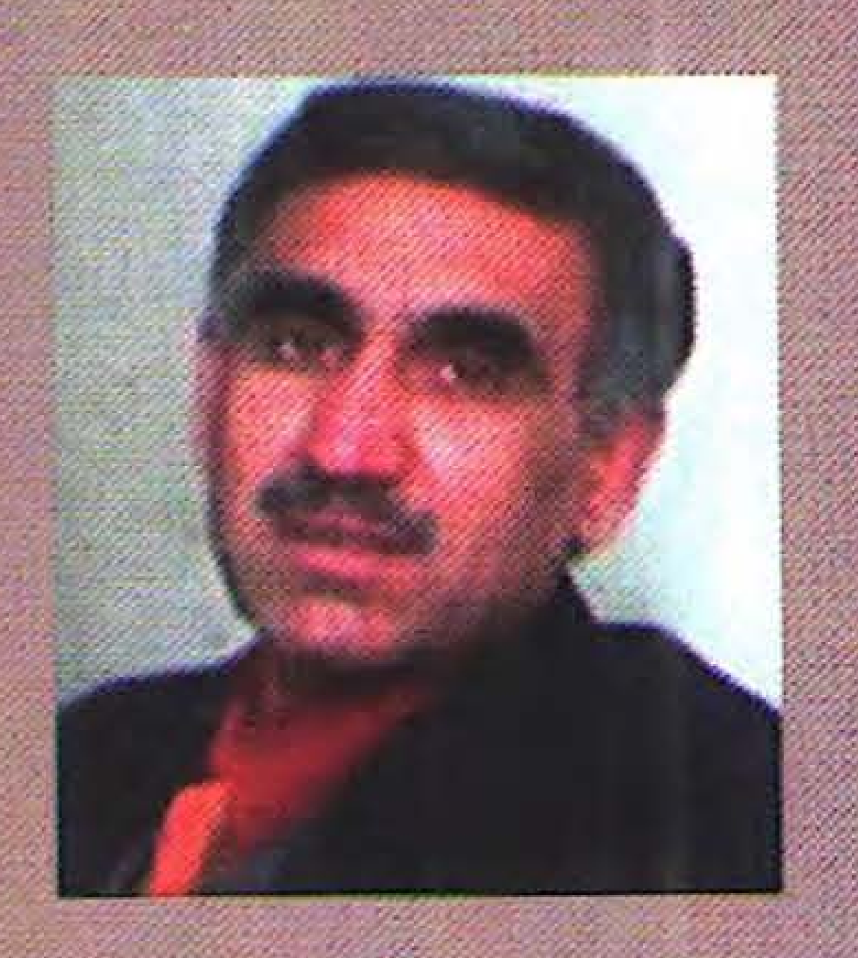
- المرتبة الثالثة .1991 . عن قصة(كرنفال للشهيد).
- المرتبة الأولى .2003 . عن قصة(يوم اغتالوا الجسر).
- جائزة الإبداع في مسابقة . ناجي نعمان . الدورة الخامسة . 2007. عن المجموعة القصصية - (ثغرها على منديل).
- المرتبة الأولى . 2008 . عن قصة(مزرعة الرؤوس)في مركز النور. الدورة الأولى .
- المرتبة الثانية . عن رواية(أولاد اليهودية)مؤسسة الكلمة . مصر . مسابقة . نجيب محفوظ للرواية والقصة . الدورة الثانية . 2010.



تموز للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق/ جوال: 00963-944628570

Email: akramaleshi@gmail.com



تحسين كرمياني

قاص وروائي وكاتب مسرحي

عضو اتحاد أدباء العراق

صدر له:

- (هواجس بلا مرافئ)..مجموعة قصصية..دار الشؤون الثقافية العامة/ سلسلة ثقافة ضد الحصار. 2001.
- (ثغرها على منديل)..مجموعة قصصية..دار ناجي نعمان/لبنان/2008.
- (بينما نحن..بينما هم)..مجموعة قصصية..دار الينابيع . دمشق . 2010.
- (الحزن الوسيم)..رواية..دار الينابيع . دمشق . 2010.
- (بقايا غبار)..مجموعة قصصية..دار رند . دمشق . 2010.
- (بعل الغجرية)..رواية..دار كلمة . مصر 2010.
- (قفل قلبي)رواية..دار فضاءات . عمّان . 2011.
- (خوذة العريف غضبان)..خمس مسرحيات..دار رند . دمشق . 2011.
- (من أجل صورة زفاف)..مسرحيتان..دار رند . دمشق . 2011.

الجوائز:

- المرتبة الثالثة .1991 . عن قصة(كرنفال للشهيد).
- المرتبة الأولى .2003 . عن قصة(يوم اغتالوا الجسر).
- جائزة الإبداع في مسابقة . ناجي نعمان . الدورة الخامسة . 2007. عن المجموعة القصصية - (ثغرها على منديل).
- المرتبة الأولى . 2008 . عن قصة(مزرعة الرؤوس)في مركز النور. الدورة الأولى .
- المرتبة الثانية . عن رواية(أولاد اليهودية)مؤسسة الكلمة . مصر . مسابقة . نجيب محفوظ للرواية والقصة . الدورة الثانية . 2010.



تموز للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق/ جوال: 00963-944628570

Email: akramaleshi@gmail.com